

## نظرية التناسب

الدكتور جمال الدين عبد العزيز شريف (\*)

توطئة :

إنَّ التأمُّل والتدقيق في تلويحات العلماء ليكشفان - بصورة واضحة جلية - أن في أغوار التاريخ السحيق علوما عظيمة قد انجمت ومعارف جلييلة قد اندرست ؛ ورغم هذا الانعجام والاندراس إلا أن أضواء الآثار الشاهدة لا زالت تنبئ بأن جهودا جبارة قد كانت وأعمالا متميزة قد وجدت ؛ وإن كانت هذه الآثار تأتي أن تتجلى سافرة الوجه بادية الصفحة ؛ إذ لا تعدو هذه الآثار أن تمثل تنبيها على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج ، ومن هذه العلوم التي اجتهد فيها الأقدمون فاندرست - علم جليل من علوم القرآن قد أشاد العلماء به ونوَّهوا بمكانته الرفيعة ، وهذا العلم الجليل قد اشتمل على رؤى متباينة ومناهج مختلفة ، وهذا الاختلاف بين المناهج إنما يرجع إلى تعدد جوانب هذا العلم وتكاثر موضوعاته من جهة ، وإلى تباين خصائص الناظرين واختلاف بيناتهم الفكرية من جهة أخرى ، وهذا التباين بين الناظرين والدارسين قد حال - وبصورة مباشرة - دون وجود رؤية متكاملة تجمع أطراف هذا العلم وتلم أشناته.

وهذا العلم العظيم الشأن الذي نوَّه العلماء بمكانته الرفيعة قد عرف عندهم بـ "علم المناسبة" أو "التناسب" ، والتناسب في اللغة هو : التقارب والتناسق والمشاكله والترابط والتعلق والانسجام<sup>(1)</sup> ، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن العظيم بصيغ متعددة في قوله تعالى: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا)<sup>(1)</sup> وقوله تعالى: ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا )<sup>(2)</sup> وقوله تعالى: ( فَأِدَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ )<sup>(3)</sup> والمراد بالتناسب ودراسته هنا هو : تلمس أوجه الترابط والانسجام في القرآن العظيم ، ومعلوم أن لفظ "قرآن" ابتداء يدل - في لغة العرب - على الضم والجمع

(\*) أستاذ مساعد بمعهد إسلام المعرفة جامعة الجزيرة .

(1) يقول ابن منظور "النسبة والنسب : القرابة ، وجمعها أنساب ، وناسبه : شركه في نسبه ، والنسيب : المناسب ، وفلان يناسب فلانا فهو نسيبه : أي قريبه "ابن منظور :جمال الدين : لسان العرب ط/ دار صادر للطباعة والنشر سنة 1990م ، 1/756 .  
(1) سورة الصافات الآية 158 ، قال قتادة والكلبي ومقاتل : "قالت اليهود - لعنهم الله - إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم " القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ط/3 دار الكتب المصرية 135/15 .ويقول الإمام الطبري : "ذلك لقول قريش إن الملائكة بنات الله فيقول الله : إن تكن الملائكة بناتي فإبليس منها وقد جعلوا بيني وبين إبليس وذريته نسبا" " الإمام الطبري : محمد بن جرير : جامع البيان : ط/ دار الفكر بيروت سنة 1405 ، 1/226 . وقال مجاهد: " قال كفار قريش : إن الملائكة بنات الله ، فسأل أبو بكر فمن أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن ؛ يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس " "المصدر نفسه 106/23 . وقال ابن عباس والضحاك : " هو قولهم : إن الله تعالى وإبليس إخوان ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا " "الجامع لأحكام القرآن 135/1 . وقال الحسن : "أشركوا الشيطان في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه " "المصدر نفسه" .ويعلق الإمام القرطبي بقوله : "قول الحسن هذا أحسن ، ودليله قوله تعالى : إذ نسويكم برب العالمين " "المصدر نفسه" .

(2) سورة الفرقان الآية 54 ، يقول علي كرم الله وجهه : " النسب ما لا يحل نكاحه والصره ما يحل نكاحه " "زاد المسير 97/6" . وقال ابن قتيبة "نسبا : أي نسباً في القرابة ، وصهراً : أي قرابة النكاح " "المصدر نفسه" .

(3) سورة المؤمنون الآية 101 ، ولا تعارض بين هذه الآية وقوله تعالى " وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ " ومعلوم أنهم كانوا يتسألون بالأرحام في الدنيا قال تعالى " وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ " أي يقول أحدهم سألتك بالله والرحم ، أما في القيامة فلا أنساب بينهم ولا يتسألون بها أي لا ينتفعون بها "الجامع لأحكام القرآن 74/15" .

والتأليف<sup>(4)</sup> الذي يشير إشارة جلية إلى التقارب والتناسب والترابط والتعلق والانسجام ؛ ولهذا يقول الجرجاني<sup>(\*)</sup> " إنما كان قرآناً وكلام الله عز وجل بالنظم الذي هو عليه " .

(1) وقال تعالى : (كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ )<sup>(2)</sup> ومن معاني الأحكام<sup>(3)</sup> : الإحكام في النظم والرصف والتأليف<sup>(4)</sup> . ولا شك أن التناسب والانسجام ضد الاختلاف والتفاوت والاضطراب والتنافر ؛ ولهذا يقول الله تعالى : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)<sup>(5)</sup> ولكن وبمفهوم المخالفة - كما يقول الأصوليون - فإن القرآن لما كان من عند الله فقد وجدوا فيه تناسقاً وتناسباً وانسجاماً عجبياً ؛ ولأجل ذلك كانت قضية التناسب هذه قضية جوهرية في القرآن ؛ لأنه منزّه عن الاختلاف والتضاد والتفاوت ، ومن هنا كانت لهذه القضية أهميتها التي يمكن أن تكمن في أمور كثيرة جداً ؛ منها الآتي:

1- إن التناسب والانسجام من أهم السمات التي يتحقق بتحققها الجمال وينتفي بانتفائها ؛ إذ لا بد لكل عمل بديع وصنعة مستحسنة من وجود أصرة تجمع المختلف منها والمؤتلف والمتشابه والمتباين ، ولا ريب أن النظم المحكم والرصف المتفرد والبناء المتلاحم من أهم الخصائص التي تكشف عن جمال القرآن العظيم ؛ ومعلوم أن أهم محاسن الكلام - أن يرتبط بعضه ببعض وتلتئم أجزاءه وتتفق مبانيه وتتناسب أطرافه وتتسجم مكوناته ؛ ويغدو سلس النظام خفيفاً على اللسان حتى لكأنه بأسره كلمة واحدة ؛ فيسلم بذلك من التفرّق والتنافر والتباين والاختلاف .

(4) لفظ "قرآن" مصدر مختوم بالألف والنون كالرجحان والفرقان ، وهو بمعنى الضم والجمع ؛ يقول عمرو بن أبي كنثوم :

تريك إذا دخلت على خلاء  
وقد أمنت عيون الكاشحين  
نراعي عيطل أدماء بكر  
هجان اللون لم تقرأ جنيينا

ولم تقرأ جنيينا : أي لم تضم في رحمها جنييناً . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) سورة القيامة الآية 17 ؛ يقول ابن عباس :

"أي إذا جمعناه في صدرك فاعمل به" "الأصفهاني: غريب القرآن تحقيق محمد سيد كيلاني ط/ دار المعرفة بيروت 402/1".

(\*) هو الإمام المشهور مجد الإسلام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ت471هـ ، برع في العربية والبيان وتبحر فيهما حتى سطع نجمه وعلت منزلته وغدّ من الأئمة الأكابر فبلغ صداه الأفاق ، له في البلاغة والإعجاز " أسرار البلاغة " و "دلائل الإعجاز " " انظر جلال الدين السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ المكتبة العصرية 106/2 " .

(1) الجرجاني : عبد القاهر بن عبد الرحمن : دلائل الإعجاز : محمود محمد شاكر ط / الثالثة مكتبة القاهرة 1992 م ، ص 519.

(2) الجامع لأحكام القرآن 4 / 10.

(3) تدلّ الآية { كتاب أحكمت آياته } على أن القرآن كله محكم ؛ لأنه إحكام النظم والرصف وذلك لأن التعريف بالإضافة هنا يفيد العموم وقد ذكر القرطبي أنه " قيل أن القرآن كله محكم لقوله : "أحكمت آياته" "الجامع لأحكام القرآن 4 / 10) وقد ذكر ابن كثير أيضاً عن مجاهد أن القرآن كله متشابه لقوله تعالى "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا" "تفسير القرآن العظيم 4 / 51) ويقول القرطبي أيضاً الإحكام هنا المنع من الفساد "الجامع لأحكام القرآن 4/10" وقد قيل في معنى الإحكام أقوالاً كثيرة منها: أن المحكم هو الناسخ ؛ والمتشابه هو المنسوخ ، ومنها : أن المتشابه ما يحتمل وجوهاً كثيرة ؛ فالمحكم أصل ترد إليه الفروع والمتشابه هو الفرع ، ومنها : أن المحكمات هي التي فيها حجة الرب ، ومنها : أن المحكم هو ما أجمع عليه والمتشابه هو ما اختلف فيه ، وقيل أن المحكمات هي الآيات البيّنات واضحات الدلالة،( انظر في ذلك الجامع لأحكام القرآن 4 / 10، تفسير القرآن العظيم : دار الفكر 1981 م ، 51/4 ، 345، وغريب القرآن 1 / 255.

(4) الجامع لأحكام القرآن 4 / 10.

(5) سورة النساء الآية 82.

2- ذهب كثير من العلماء إلى أن تلمس التناسب ودراسة أوجه التعلّق والارتباط في القرآن من العلوم الشريفة التي تتكشف بتكشفها لطائف التنزيل وأسراره ؛ يقول الإمام الرازي(\*) : "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"<sup>(1)</sup> ويقول أبو بكر بن العربي(\*\*) : "ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني - علم عظيم لم يتعرّض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عزّ وجلّ لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلنة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"<sup>(2)</sup> وهذا العلم الذي هو علم دقيق المسالك خفي المدارك - يكشف للنظر المتأمل اللطائف والأسرار التي عليها ربّ الله كتابه.

3- إن التناسب يجعل الكلام أخذاً بعضه بأعناق بعض ؛ بحيث لا يختلف ولا يضطرب ولا يتضادّ ولا يتعارض ولا يتفاوت بشكل من الأشكال ؛ فيقوى بذلك الارتباط ويصير حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء ، وفي ذلك من عظمة الكلام ما لا يخفى .

4- إن الصفة الجوهرية التي حولها حام دارسو الإعجاز - على اختلاف مدارسهم وتعدّد رواهم وتباين أبعادهم - هي مسألة التناسب والنظم والضمّ والانسجام والتألف ؛ ويذهب الجرجاني إلى أن من أهم وجوه الإعجاز والمزيّة موقع الأجزاء بعضها من بعض ؛ واستعمال بعضها مع بعض<sup>(1)</sup>؛ ويقول الرازي : "إن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه - فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته"<sup>(2)</sup> وهذه الصفة الجوهرية في القرآن لا تكاد تخفى على كل من تدبّر له ولو تدبّراً يسيراً ؛ يقول سيد قطب(\*) : "والتناسق المطلق الشامل هو الظاهرة التي لا يخطئها كل من تدبّر القرآن أبداً ، ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها ... تتجلّى هذه الظاهرة - ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق - ابتداء من التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية ... والكمال في الأداء بلا تعيّر ولا اختلاف من مستوى

(\*) الرازي هو محمّد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي الإمام المفسّر ، فريد عصره في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ولد سنة 544هـ وتوفي سنة 606 هـ ، من كتبه "مفاتيح الغيب" في التفسير و "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" في البلاغة و "المحصول" في أصول الفقه . " انظر أصول الفقه تاريخه ورجاله 225 - 226 " .

(1) الزركشي : البرهان في علوم القرآن: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط / دار الجليل بيروت 1988م ، 35/1 الإتيقان : تحقيق خليل محمد العربي ، ط / دار الفاروق الحديثة القاهرة 1415هـ 288/2 .

(\*\*) هو الإمام العلامة الحافظ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن حمد بن عبد الله ابن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي صاحب التصانيف ، فسّر القرآن المجيد فأتى بكل بديع ، كان ثاقب الذهن عذب المنطق كريم الشمائل كامل السؤدد ولي قضاء إشبيلية وصنف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتواريخ توفي بفاس سنة 543 هـ " الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان : سير أعلام النبلاء ط/1 مؤسسة الرسالة بيروت تحقيق محمد نعيم 1982م ، 20 / 202 " .

(2) البرهان 35 / 1 ، الإتيقان/288 .

(1) دلائل الإعجاز ص 78 .

(2) البرهان 35/1 ، الإتيقان/289 .

(\*) مفسر ومفكر وناقد وأديب وشاعر مصري مشهور معاصر ، له من الكتب " في ظلال القرآن " و " التصوير الفني في القرآن " و " النقد الأدبي " و " معالم في الطريق " وغيرها .

إلى مستوى ... وتتجلى هذه الظاهرة بعد ذلك في ذات المنهج الذي تحمله " (3) ولا يقصر سيد قطب التناسب المطلق والتناسق الشامل على الكتاب العزيز فحسب ؛ بل يجعله أمراً منهجياً ينتظم الدين وحقائقه كلها ؛ يقول : "هنالك التناسق الشامل العجيب في طبيعة الدين وحقائقه ومشهد التكامل الجميل الدقيق في منهجه للعمل وطريقته ، إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات ؛ إنما يبدو تصميمياً واحداً متداخلاً مترابطاً متعاشقاً" (1).

هذا وقد تناولت كتب علوم القرآن تاريخ هذا العلم بشكل غريب ؛ إذ حصرت نشأته وبداية التصنيف فيه في فترات متأخرة ، وتشهد كتب البلاغة والإعجاز القرآني بخلاف ذلك ، ولعل سبب هذا الإغفال أن كتب علوم القرآن قد حصرت هذا التناسب في نطاق شديد الضيق لا يتناول الأبعاد الأخرى منه ، وهذا أمر منهجي لا يمكن تجاوزه كما سيأتي . وقد ذكرت تلك الكتب أن هذا العلم الجليل قد نشأ على يد الشيخ أبي بكر النيسابوري(\*) ت 324هـ ؛ يقول أبو الحسن الشهرستاني : "أول من أظهر ببغداد علم المناسبة - ولم تكن سمعناه من غيره - هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري ، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب ، وكان يقول - وهو على الكرسي إذا قرئت عليه آية - : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة" (2) كما ذكرت تلك الكتب أن أول من أفرد هذا العلم بالتصنيف أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي(\*\*) ت 708هـ وهو صاحب "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" (1) . وذلك كله فيه نظر ؛ للأسباب الآتية :

1- إن الصحابة وسلف الأمة بما لهم من فطرة سليمة قد كانوا يدركون أسرار هذا العلم ولطائفه ؛ يقول البقاعي(\*\*\*) : "وقد كان أفاضل السلف يعرفون هذا بما في سليقتهم من أفانين العربية ودقيق مناهج الفكر

(3) في ظلال القرآن ص 721.

(1) المصدر السابق.

(\*) أبو بكر النيسابوري هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبو بكر عبد الله بن محمد بن النيسابوري مولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، الحافظ الشافعي صاحب التصانيف ، تفقه على المزني والربيع وابن عبد الحكم ، برع في العلمين : الحديث والفقه وفاق الأقران ، روى عنه ابن عقدة وأبو إسحاق بن حمزة وحمزة بن محمد الكناني وابن المطرف والدارقطني ، قال أبو عبد الله الحاكم : كان إمام الشافعيين في آلاف بالعراق ، وكان أفقه المشايخ ، وكان يعرف زيادات الألفاظ ، مات في شهر ربيع الآخر سنة 324هـ. سير أعلام النبلاء 65/15-66.

(2) البرهان 36/1 ، الإتيان 289/2 .

(\*\*) الشيخ أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي صاحب البرهان في "تناسب سور القرآن" الذي ذكر فيه مناسبة كل سورة لما قبلها مات سنة 708هـ "كشف الظنون 241/1".

(1) البرهان 36/1 . الإتيان 288/2 .

(\*\*\*) الشيخ الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي صاحب "نظم الدرر في تناسب الآي والسور" في التفسير ، وهو كتاب جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول ، وذكر في آخره أنه فرغ منه في سابع شعبان سنة خمس وسبعين وثمانمائة وكان ابتدأه في شعبان سنة إحدى وستين وثمانمائة فتلك أربع عشرة سنة ، قال : "إني بعدما توغلت فيه واستقامت لي مبانیه فوصلت إلى قريب من نصفه فبالغ الفضلاء في وصفه بحسن سبكه وغازرة معانيه وإحكام رصفه - دبّ داء الحسد في جماعة أولي نكد ومكر ؛ فصوبوا من سهام الشرور والأباطيل أنواع الزور ما الغرما بسببه الوقائع ، وطال الأمر في ذلك سنين وعم الكرب ، وصنفت بسبب ذلك كتابي (مصاعد النظر في الأشراف على مقاصد السور) ، ثم

البشرية ولطيف النوازع العقلية ، ثم تناقص هذا العلم حتى انجم على الناس إلى حد الغرابة كغيره من الفنون<sup>(2)</sup> ثم يضرب البقاعي لذلك أمثلة من نماذج الصحابة ، ويبدو أن أبا بكر النيسابوري - الذي يقال أنه أول من تكلم في هذا العلم - لم يتأت له هذا العلم من جهة الابتكار أو الاكتشاف ؛ وإنما وجد نماذج اقتدى بها ونسج على منوالها ؛ إذ "كان أحفظ الناس للفقهيات واختلاف الصحابة"<sup>(3)</sup>؛ يقول عنه الدارقطني<sup>(\*)</sup> : "ما رأيت أحفظ من أبي بكر النيسابوري"<sup>(1)</sup> ويقول عنه أيضاً : "لم نر مثله في مشايخنا ولم نر أحفظ منه للأسانيد والمتون"<sup>(2)</sup> وقد هاجر النيسابوري - رحمه الله - في طلب العلم إلى العراق ومصر والشام و الحجاز ، ولا شك أن لحفظ النيسابوري وجمعه للعلم من البلدان المختلفة أثر واضح في إظهار هذا العلم .

2- لم يكن ابن الزبير - هذا العالم المتأخر - هو أول من صنّف في التناسب، ولا شك أن الذين زعموا ذلك لم يراعوا كافة أشكال التناسب ؛ بل حصروا هذا العلم في شكل واحد هو ترتيب السور وضربوا صفحاً عن التناسب بين المفردات والتناسب بين الجمل والآيات وغيرها ، وإلا فإن النظم - الذي هو إيجاد المناسبة وإقامة الروابط بين المفردات في التركيب بصورة معينة - يعدّ أهم أنواع التناسب التي اهتم بها العلماء وأقدمها كما سيأتي .

#### أوجه التناسب:

لما كان التناسب والانسجام سمة جوهرية من سمات القرآن التي قام عليها إعجازه - فقد اهتم العلماء بها اهتماماً شديداً ؛ وإن كانوا قد اختلفوا اختلافاً بيناً في وجوهها وأشكالها وأنواعها ، ولأجل ذلك نرى الإمام السيوطي<sup>(\*)</sup> قد قسّم هذه الأوجه تقسيماً عجيباً في كتابه "أسرار التنزيل" الذي وصفه بأنه "المبرز في أعاجيبه المبيّن لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه ؛ الكاشف عن وجه إعجازه ؛ الداخِل إلى حقيقته من مجازه ؛ المطلع على أفانينه ؛ المبدع في تقرير

---

صنفت الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة ، وثبت الله تعالى ورزق الصبر والأناءة حتى أكمل هذا الكتاب" مات سنة 885 هـ "كشف الظنون 1962/2".

(2) البقاعي : مساعد النظر 153/1.

(3) سير أعلام النبلاء 65/15.

(\*) هو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الحافظ الدارقطني "ودار القطن محلة كبيرة ببغداد" ، كان عالماً حافظاً انفرد بالإمامة في علم الحديث في آلاف ولم ينافس في ذلك أحد من نظرائه ، وكان عارفاً باختلاف الفقهاء ويحفظ كثيراً من الدواوين ، صنّف كتاب السنن والمختلف والمؤتلف وغيرهما ، وخرج من بغداد إلى مصر وكان متقناً في علوم كثيرة إماماً في علوم القرآن ، توفي في سنة 385 هـ "القنوجي : محمد صديق : أبجد العلوم والوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ط/دار الكتب العلمية بيروت 3/ 146".

(1) سير أعلام النبلاء 65/15.

(2) سير أعلام النبلاء 65/15.

(\*) هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي له كتب كثيرة جدا حفظ بها كثيراً من علوم التراث من الضياع ، ويقال أن كتبه بلغت أكثر من ستمائة واعتنى بعلوم القرآن خاصة ؛ يقول عنه القنوجي "وقد أكثر الناس التصنيف في أنواع علوم القرآن وتفسيرها وألف الشيخ الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله في جملة من أنواعه ففاتها" أبجد العلوم 202/2

**حججه وبراهينه** " (1) ورغم هذا الوصف العالي الذي وصف به السيوطي كتابه إلا أنه قد قسم التناسب تقسيماً غير

منهجي ؛ فحوى الكتاب كثيراً مما هو ليس من التناسب أصلاً ، وهذا التقسيم الذي قسمه السيوطي كالاتي (2) :

**الوجه الأول** : بيان مناسبات ترتيب سورته وحكمة وضع كل سورة منها

**الوجه الثاني** : إن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها .

**الوجه الثالث** : وجه اعتلاق فاتحة السورة وخاتمة التي قبلها .

**الوجه الرابع** : مناسبات مطلع السورة للمقصد الذي سيقف له ؛ وتلك براعة الاستهلال .

**الوجه الخامس** : مناسبات أوائل السور لخواتيمها .

**الوجه السادس** : مناسبات ترتيب آياته واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها .

**الوجه السابع** : بيان أساليبه في البلاغة وتنوع خطابه وسياقاته .

**الوجه الثامن** : بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها ؛ كالاستعارة والكناية والتعريض

والالتفات والتورية والاستخدام واللف والنشر والطباق والمقابلة والمجاز بأنواعه والإيجاز والإطناب وغيرها

**الوجه التاسع** : بيان فواصل الآي ومناسبتها للآي التي ضمننت بها .

**الوجه العاشر** : مناسبة أسماء السور .

**الوجه الحادي عشر** : بيان أوجه اختيار مرادفاته دون سائرها .

**الوجه الثاني عشر** : بيان القراءات المختلفة مشهورها وشاذها وما تضمنته من المعاني والعلوم ، فإن ذلك من

جملة وجوه إعجازه .

**الوجه الثالث عشر** : بيان وجه تفاوت أوجه الآيات المتشابهة من القصص وغيرها بالزيادة والنقص والتقديم

والتأخير وإبدال لفظة مكان أخرى ونحو ذلك .

ولعل القارئ لا يخفى عليه - في تقسيم الإمام السيوطي هذا - كثير من أنواع الخلل المنهجي التي منها :

1- عدم وجود رابط منهجي جامع بين هذه الوجوه على اختلافها .

2- إقحام كثير من الأنواع التي لا معنى لدخولها في هذا المضمون ؛ نحو براعة الاستهلال وتنوع خطابات القرآن

وسياقاته والمحسنات البديعية والواصل وأسماء السور والقراءات ونحوها .

3- إغفال كثير من الوجوه التي ذكرتها كتب البلاغيين ودارسي الإعجاز والمتكلمين والمفسرين وغيرهم .

ولما كان الأمر على الوجه الذي ذكرنا فلا بد من تقسيم أوجه التناسب تقسيماً مختلفاً ؛ حتى يشكل نظرية متكاملة ؛ وذلك على

النحو الآتي :

(1) أسرار ترتيب القرآن : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : تحقيق عبد القادر أحمد عطا ط/ دار الاعتصام القاهرة ص 65

(2) أسرار ترتيب القرآن ص 65-67.

## (أ) التناسب الخارجي :

نقصد بالتناسب الخارجي اتساق معاني القرآن مع ما وصفته خارج النص ، وقد ذكر ابن كثير أن القرآن : "معجز من وجوه كثيرة ؛ منها نظمه وما تضمنه من الأخبار الماضية والمستقبلية وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجليلة" (1) وذكر السيوطي أن من وجوه الإعجاز حسن النظم والإخبار عن الغيب(2).

ولما كان القرآن معجزاً في صحة أخباره وأحكامه ؛ فقد قال تعالى : ( وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ) (3) ؛ يقول ابن كثير (\*) : "يعني صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي" (4) ؛ وقال تعالى : ( كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ) (5) أي : حكيم يضع كل شيء موضعه الأنسب ؛ فحكمه هو العدل ، خبير : عالم بجلائل الأمور ودقائقها ؛ فخير هو الصدق ؛ يقول ابن كثير : "أخبر عن مغيبات كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى : ( وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ) أي : صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ؛ فكله حق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ... وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء" (6). وما ذلك إلا لأن المعاني - على عمومها - لا تكون إلا خبراً "يصح فيه الصدق والكذب" أو إنشاء "أوامر ونواهد وغيرها" ، ولهذا يقول ابن كثير : "كلمات الله الشرعية إما خبر صدق وإما طلب عدل" (7) ولما كان الأمر على الوجه الذي ذكر - فقد انقسمت المعاني عند تناسبها مع الخارج إلى قسمين هما :

1- مناسبة المعاني للواقع الموصوف "الصدق في الأخبار".

2- مناسبة المعاني للمصالح "العدل في الأحكام".

وهذان النوعان اللذان لا تكون المعاني إلا عليهما - إنما يدركهما الإنسان المكلف بالعقل، وهنا يظهر نوع ثالث من أنواع المناسبة ؛ وهو المناسبة بين هذه المعاني وقوانين العقل ؛ وتفصيل ذلك كالآتي :

## 1- مناسبة المعاني الخبرية للواقع الخارجي :

(1) ابن كثير : البداية والنهاية ، ط/ مكتبة المعارف بيروت 68/6.

(2) السيوطي : الجلالين ، ط/ دار الحديث القاهرة "د.ت" ص6.

(3) سورة الأنعام الآية 115.

(\*) ابن كثير هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، أبو الفداء ، المفسر المشهور ، وهو من تلاميذ شيخ الإسلام بن تيمية من كتبه تفسير القرآن العظيم والبداية والنهاية في التاريخ ، توفي سنة 747هـ..

(4) تفسير القرآن العظيم 510/2.

(5) سورة هود الآية 1.

(6) تفسير القرآن العظيم 161/1.

(7) المصدر السابق 166/2.

إن الإعجاز القرآني الكامن في صدق الأخبار ومناسبتها للواقع - قد فصل العلماء فيه قديماً ؛ بل إن هذا النوع قد كان أول الأنواع الإعجازية التي تناولها هؤلاء العلماء ؛ إذ ذكر إبراهيم بن سيار النظام(\*) أن القرآن معجز بما تضمنه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية كما سيأتي ؛ ثم توالى العلماء في تفصيل هذا النوع من المناسبة والإعجاز ؛ كالخطابي(\*\*) والرماني(\*\*\*) والباقلاني(\*\*\*\*) ، يقول الخطابي : "إن القرآن إنما صار معجزاً ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني ... واضعاً كل شيء موضعه الذي لا يرى في صورة العقل أمر أليق منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ... ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم ؛ فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته"(1).

وهذا النوع من أنواع التناسب لا يقتصر على القرآن دون سواه من الكتب ؛ إذ أن خبر الله هو الصدق المطلق ؛ سواء كان هذا الخبر في القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو الزبور ؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(\*) : "إذا قدر "أحد" أن التوراة والإنجيل أو الزبور معجز لما فيه من العلوم والإخبار بالغيب والأمر والنهي ونحو ذلك لم يناعز في ذلك ؛ بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم وعلى نبوة من أخبروا بنبوته (ص) ، ومن قال إنها ليست معجزة من جهة اللفظ والنظم كالقرآن فهذا ممكن"(2).

ورغم هذه الصفة المشتركة بين الكتب السماوية إلا أن القرآن العظيم يفوق هذه الكتب في هذه الصفة من عدة وجوه ؛ منها

:

(\*) هو إبراهيم بن سيار بن هاني ، ولد عام 160 هـ بالبصرة ، وفيها نشأ فقيراً و أكل من عمل يده ونظم الخرز فتكسب بنظمه ، ولأجل ذلك سمي بالنظام وعرف في المحافل العلمية بذلك ، ولما بلغ أشده واستوى أوتي بسطة في العلم وقوة في العقل؛ حتى أصبح من كبار المعتزلة وفرسان النظر وأهل الكلام و ضرب به المثل في قوة الحجّة؛ وسطوع الدليل ؛ وطول الباع؛ وغلبة الخصوم في الجدل والمناظرة "أحمد أمين: ضحى الإسلام ، ط 3/ القاهرة ، 1943م ، 3/ 106".

(\*\*) الإمام العلامة الحافظ اللغوي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي صاحب التصانيف ، سمع من ابن الأعرابي بمكة وغيره بالبصرة توفي ببست في شهر ربيع الآخر سنة 388 هـ - "سير أعلام النبلاء 27/ 17".

(\*\*\*) هو أبو الحسن بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني ويعرف بالإخشيد وبالوراق ، وهو نحوي و متكلم كان إماماً في علم العربية وكان متبحراً في الفقه والقرآن والمنطق والكلام على مذهب المعتزلة ، وله تفسير كبير ، مات سنة 383 هـ " انظر أبو حيان التوحيدي الإمتاع والمؤانسة 108/1 - 128 ، وياقوت الحموي: معجم الأدباء 74/14 والبداية والنهاية 314/11".

(\*\*\*\*) يصفه ابن كثير بأنه رأس المتكلمين على مذهب الإمام الشافعي وكان كثير التأليف ، من كتبه التبصرة و دقائق الحقائق و التمهيد في أصول الفقه و شرح الإبانة و كشف الأسرار و هناك الأسرار و قد كان في غاية الذكاء و الفطنة (البداية والنهاية 350/11).

(1) الخطابي : إعجاز القرآن "ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله و محمد ز غول سلام دار المعارف مصر سنة 1968 م ص 27-28.

(\*) ابن تيمية هو أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام الإمام الحافظ المجتهد المحدث المفسر الأصولي النحوي ، ولد بجران سنة 661 هـ ، وتوفي سنة 721 هـ بدمشق. من كتبه "اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم" و "الصارم المسلول على شاتم الرسول" و "الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح" و "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية" و "منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية" و "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" " انظر شعبان محمد إسماعيل : أصول الفقه تاريخه ورجاله ط/1 سنة 1981م. ص 307-308".

(2) ابن تيمية: أحمد بن عبد الحلیم : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ط/ مكة 1404 هـ ، 433/5.

**أولاً : الخلود :**

نال التحريف والتبديل حقائق الكتب السماوية التي أنزلت قبل القرآن العظيم ؛ فلا يمكن الآن الجزم بصحة أخبارها المحرّفة ومطابقتها للواقع حال تحريفها ؛ وشتان ما بين الأصل الإلهي والكتاب المحرّف ، أما القرآن فمعلوم - يقيناً - أن الله تعالى قد حفظه من التغيير على وجه الزمان ، وخصّت هذه الأمة بالرواية والإسناد ، وجعل ميراث النبوة يحمله فيها من كل جيل عدوله ينفون عنه تحريف المحرّفين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، وإذا كان ليس هنالك من نبي ينتظر بعد رسول الله (ص) ولا كتاب يرتقب بعد القرآن - فإن التحريف إذا نال هذا الكتاب واعتراه التبديل لما بقى لله على الأرض دين صحيح.

**ثانياً : الهيمنة :**

ذكر الله تعالى أن القرآن مصدّق لما أنزل قبله من الكتب ومهيّم عليها ؛ وذلك لأنه مؤيد للحقائق الأصلية التي وردت فيها ، ومصحّح لما حرّف منها ؛ ولهذا فلا مصدر صحيح لتلك الكتب إلا القرآن نفسه.

**ثالثاً : اشتماله على أصول كافة العلوم :**

جاء القرآن للناس كافة ؛ ولذلك فهو يخاطب العالمين جميعاً ، وذلك - كما هو معلوم - بخلاف كافة الكتب السماوية الأخرى ؛ ولهذا قال عنه (ص) "لا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه" (1). وما ذاك إلا لأنه مشتمل على كافة حاجات الإنسان الدنيوية والأخروية ؛ قال تعالى : ( وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ) (2) وقال أيضا : ( مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ) (3) يقول ابن مسعود : "قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء" (1) ويقول الإمام القرطبي : "إن دلالة القرآن على كل العلوم دلالة مبيّنة مشروحة أو مجملة" (2) ويقول أيضاً : "صدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شيء إلا ذكره إما تفصيلاً وإما تأصيلاً" (3) ويقول ابن كثير : "إن القرآن مشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام ، وما الناس إلا محتاجون إليه في أمر دنياهم ومعاشهم ومعادهم" (4) ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "القرآن فيه ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن ، ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون لم يجد عند

(1) سنن الترمذي : تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط/ دار إحياء التراث العربي حديث رقم 2906.

(2) سورة النحل الآية 87.

(3) سورة الأنعام الآية 38.

(1) تفسير القرآن العظيم 583/2.

(2) الجامع لأحكام القرآن 420/4.

(3) الجامع لأحكام القرآن 428/6.

(4) تفسير القرآن العظيم 583/2.

الأولين والآخرين - من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم - إلا بعض ما جاء به القرآن ؛ ولهذا لم تحتج الأمة مع رسولها وكتابتها إلي نبي آخر وكتاب آخر" (5).

وقد سبق أن المعاني الخبرية في القرآن مطابقة ومناسبة وموافقة للحسّ ، وهذا دليل على أن منزله هو الله الخبير بكل شيء مهما جَلَّ أو دَقَّ ، يقول ابن تيمية : "لا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحسّ" (6) ولما كان الأمر كذلك فقد كشفت كثير من العلوم الحديثة صحة مناسبة الخبر القرآني لما خلق في عالم الطبيعة ، وليس معنى موافقة القرآن لعالم الحسّ موافقته بالضرورة لمعطيات كافة العلوم الطبيعية التي لا زالت تتدرج - في محاولة إدراكها لعالم الحسّ - نحو اليقين ، وهذه نقطة منهجية في غاية الأهمية ، ومن هنا تحقّق بعض العلماء كالشيخ محمد شلتوت وأمين الخولي وسيد قطب على التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي الذي تستخدم فيه معطيات العلوم الطبيعية والإنسانية ؛ وما ذلك إلا خشية من التأويل المتكأف من جهة وتعرّض مسائل القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان من جهة أخرى ، والعلوم - كما هو معروف - لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الكلمة الأخيرة ، وحقائق القرآن العظيم نهائية قاطعة ومطلقة (1) ، ولما كان الأمر كذلك فإن لهذا الأمر الشديد الأهمية شروطاً وضوابط ؛ منها الآتي :

**أولاً :** التعويل على الحقائق لا الفرضيات ؛ إذ يجب استخدام العلوم التي وافقت الحسّ تماماً واستقرّ عليها أهلها وغدت حقيقة علمية يرجع إليها ؛ ولا يجوز التعويل - في هذا المضمار - على الفرضيات والنظريات التي لم تثبت ؛ حتى لا يعرّض فهم القرآن للتقلّب مع هذه الفروض والظنون ، ومعلوم أن مضامين القرآن تحمل حقائق علمية دقيقة تتعلّق بالعلوم الطبيعية والإنسانية ، ومعلوم أيضاً أن المتخصّص يتنبّه إلى ما لا يتنبّه إليه غيره ، ولكن ينبغي الحذر الشديد وعدم التعويل على الظنّ الذي لا يغني عن الحق شيئاً.

**ثانياً :** تجنّب التكلّف في فهم معاني القرآن ؛ إذ أن التحلّل من ضوابط الفهم وتحميل العبارات من المعاني ما لا تحتل أمر لا يقبله عاقل ، ومعلوم أن الأصل هو الأخذ من المعاني ما قبله قانون اللغة واحتملته العبارة وانسجم مع النظم والسياق ، وهذا ميدان كبير لا يمكن الخوض فيه في هذا الموضوع.

## 2- مناسبة المعاني الحكمية للمصالح :

ما من حكم من أحكام القرآن إلا وهو متناسب مع المصلحة ، ولا يكاد يوجد حكم تعبدي خالص يخلو من قصد المصلحة واعتبارها ؛ إذ ما جاءت هذه الأحكام إلا لتحقيق السعادة ؛ فهي رحمة للعالمين وتلطفاً بهم ، ولما أكمل الله للمسلمين الدين

(5) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية 450/7.

(6) المصدر نفسه 271/17.

(1) يوسف القرضاوي : مقال بعنوان نظرات في التفسير العلمي للقرآن : مجلة بحوث السنة والسيرة ع9 سنة 1417 هـ ص 13-17.

وأتم عليهم النعمة فإنه لم يغادر في كتابه مصلحة دنيوية ولا أخروية إلا نبّه عليها (1) ؛ قال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) (2) يقول ابن كثير: " هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة ؛ حيث أكمل لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم ؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن ؛ فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرّمه ولا دين إلا ما شرّعه" (3) ويقول ابن عباس: " أخبر الله نبيه (ص) والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً" (4).

ولما كانت أحكام القرآن مقصوداً منها تحقيق الصلاح والرحمة - فإن في ذلك فرقاً كبيراً بين هذه الأحكام وأحكام الكتب السماوية الأخرى التي ارتبطت بالحكمة والعقوبة فحسب ؛ قال تعالى : (فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا) (5) حتى إذا مضت شريعة موسى وجاءت شريعة عيسى حللت لهم بعض الطيبات التي حرمت عليهم ؛ إلا أن أحكامها أيضاً لم تكن مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد ، وذلك بخلاف شريعة الإسلام التي قال تعالى فيها : ( الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ..... يَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (1) ولم توصف الأشياء هنا بالطيب والخبث لأجل الحليّة والحرمة أصلاً ؛ بل العكس ؛ إذ اكتسبت هذه الأشياء الحليّة والحرمة لاعتبار أوصافها في أنفسها لا لاعتبار آخر (2).

### 3- مناسبة المعاني القرآنية للعقل :

إن المعاني القرآنية - بنوعها الخبري أو الحكمي - جارية على قانون العقل ومتناسبة مع أحكامه ، وقد نوه القرآن بمكانة العقل في فهم هذه المعاني وإدراكها ؛ يقول تعالى : ( كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (3) ، ويقول تعالى : ( كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) (4) ؛ ويقول تعالى : ( وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (5) ؛ ويقول ابن تيمية "العقل الصريح مطابق

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام 35/11 ، النبوات ص 45.

(2) سورة المائدة الآية 3.

(3) تفسير القرآن العظيم 13/2.

(4) المصدر السابق.

(5) سورة النساء الآية 160.

(1) سورة الأعراف الآية 157.

(2) الجامع لأحكام القرآن 350/11 ومجموع الفتاوى 265/1 ، 372/3 ، 94/8 ، 512/10 ، 96/13 ، 313/15 ، 178/17 ، 48/2 ، 343/23 ،

278/24 ، 178/27 ، 284/28 ، 591/28 ، 251/29 ، 136،193،248،359/30.

(3) سورة البقرة الآية 242.

(4) سورة الروم الآية 28.

(5) سورة البقرة الآية 44.

للسمع الصحيح"<sup>(6)</sup> ، وقد أفرد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأمر بالتأليف فصنّف كتابه الضخم "درء تعارض العقل والنقل".

ومعلوم أن أحكام القرآن ترتبط أشد ما يكون الارتباط بأهداف وأسباب وعلل شرعت لأجلها ، وهذه الأسباب يمكن إدراكها بالعقل ؛ يقول ابن القيم<sup>(\*)</sup> : "أخبر الله سبحانه أن كل حكم خالف حكمه الذي أنزله على رسوله - فهو من أحكام الهوى لا من أحكام العقل"<sup>(1)</sup> ، وقد علّل الصحابة بعقولهم وبنوا اجتهاداتهم على ما فهموه من العلل، ولا شك أن التعليل طور من أطوار الارتقاء العلمي الذي يصل إليه الذهن في تعامله مع الأشياء ، وكما أن من لا يؤمن بقوانين الكون واطرادها لا يمكن أن يتقدم في أي علم من العلوم - فكذلك من لا يؤمن بحكمة التشريع الشاملة وبقوانينه المطردة وبقواعده المضبوطة لا يمكن أن يتقدم في علوم الشريعة أبدا ، هذا ويتصدى شيخ الإسلام ابن تيمية لمنكري التعليل فيذهب إلى أن من أنكر التعليل بالمصالح: "فقد أنكر ما جاءت به الشريعة من المصالح والمفاسد والمعروف والمنكر وما في الشريعة من المناسبات بين الأحكام وعللها ، وأنكر خاصة الفقه في الدين الذي هو معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها"<sup>(2)</sup> . ومن الأمور المهمة في هذا المضمار أن الله تعالى قد مدح الاستنباط في الدين الذي هو قضية عقلية يقاس فيها الفرع بالأصل ويجمع بينهما بواسطة العلة ؛ قال تعالى : ( وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ )<sup>(3)</sup> والمراد بالاستنباط هنا القياس<sup>(4)</sup> .

ورغم المكانة العالية للعقل إلا أن الأمر ليس على إطلاقه ؛ إذ أن العقل لا يمكن أن يستقل بالأمر دون الشرع ؛ يقول الإمام الشاطبي<sup>(\*)</sup> : "الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم فإنما تستعمل مركبة على الأدلة السمعية أو معينة في طريقها أو محققة لمناطقها أو ما أشبه ذلك لا مستقلة بالدلالة ؛ لأن النظر فيها نظر في أمر شرعي والعقل ليس بشارع"<sup>(1)</sup> ويقول

(6) مجموع فتاوى شيخ الإسلام 527/6 .

(\*) هو محمد بن بكر بن أبوب الزرعي الدمشقي ، ولد سنة 691 هـ وتوفي سنة 751 هـ ، وهو من تلاميذ ابن تيمية ، من كتبه "إعلام الموقعين عن رب العالمين" و "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" و "إغاثة اللهفان" و "زاد المعاد" و "التبيين في أقسام القرآن" "انظر أصول الفقه تاريخه ورجاله 340 - 342" .

(1) ابن قيم الجوزية : الصواعق المرسلّة: تحقيق علي بن محمد الدخيل الله ط/ 3 دار العاصمة الرياض سنة 1998 م ، 1046/3 .

(2) ابن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام 354/11 .

(3) سورة النساء الآية 83 .

(4) الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول : تحقيق محمد سعيد البديري ، ط/ دار الفكر بيروت 1993 م ، 338/1 .

(\*) الشاطبي : هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي ، توفي سنة 790 هـ من كتبه "الموافقات في أصول الفقه" و "الاتعمام" كما كانت له كتب في النحو والأدب . " أصول الفقه تاريخه ورجاله 384 - 385" .

(1) ابن القيم : مفتاح دار السعادة 10/2 .

ابن القيم : "وبالجملة فللشارع في أحكام العبادات أسرار لا تهتدي العقول إلى إدراكها على وجه التفصيل وإن أدركتها جملة" (2).

وصحيح أن العقل والنقل يتناسبان ؛ ولكن العقل البشري بطبيعة الحال قاصر ؛ والنقل مطلق ولا متناه ؛ ولهذا يقول ابن القيم عن الأحكام النقلية : "إنها اشتملت على الحكم والمصالح التي يدركها العقل ؛ وإن لم يستقلّ بها ؛ فجاءت الشريعة بها مقرّرة لما استقرّ في العقل إدراكه ولو من بعض الوجوه" (3) ويقول الشاطبي : "إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل ؛ فيكون متبوعاً ، ويتأخر العقل ؛ فيكون تابعاً ، فلا يسرح العقل - في مجال النظر - إلا بقدر ما سرحه النقل" (4) .

(ب) التناسب الداخلي :

إن القرآن العظيم كما كان متناسباً مع الخارج فهو متناسب ومتناسق في داخله ، ويبدو ذلك في انسجام مفرداته وتناسق جملة وتناسب آياته وترابط أجزائه وترتيب سورته وتوافق معانيه ونحو ذلك ؛ يقول الزرقاني : "إن القرآن قد بلغ من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وجملة وآياته وسوره - مبلغاً لا يداينه فيه أي كلام آخر ؛ مع طول نفسه وتنوع مقاصده وافتتانه وتلويحه في الموضوع الواحد ، وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدت منه جسماً كاملاً تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه ، ولمحت فيه روحاً عاماً يبعث الحياة والحسّ على تشابك وتساند بين أعضائه ؛ فإذا هو وحدة متماسكة متألّفة ؛ على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة ؛ فبين كلمات الجملة والسورة الواحدة من التناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجانب ، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متألّفة الأجزاء متعانقة الآيات ، وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتاباً سوي الخلق حسن السميت ؛ قرءانا عربياً غير ذي عوج ؛ فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار ؛ على حين أنها مؤلفة من حلقات لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء ، ولكل جزء موضع خاص من الحلقة ، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة ، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد - جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة وحدة بديعة متألّفة تريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء ، ثم بين كل حلقة وحلقة ، ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها ، يعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن كل من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه من غير تفكك ولا تخاذل ولا انحلال ولا تنافر ؛ بينما الموضوعات مختلفة متنوعة ؛ فمن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك" (1) وتفصيل ذلك كالآتي :

1- مناسبة المعاني القرآنية لبعضها :

(2) ابن القيم : إعلام الموقعين:تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، ط / دار الجيل بيروت سنة 1973م ، 107/2.

(3) مفتاح دار السعادة 101/2.

(4) الموافقات 87/1.

(1) محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان: ط/1 دار الفكر بيروت 227/2.

نفى الله تعالى عن القرآن الاختلاف والتناقض ، ومن معاني الاختلاف والتناقض التي نفاها - أن يكذب بعضه بعضاً أو يدعو إلى شيئين يدعو أحدهما إلى فساد الآخر ؛ وقد حاول بعض الزنادقة ضرب القرآن ببعضه - فألف ابن قتيبة(\*) كتابه "تأويل مشكل القرآن" للرد عليهم ، ويذكر فيه أنهم اعترضوا على القرآن بالطعن ؛ ولغوا فيه وهجروا؛ واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ؛ وحرّفوا الكلم عن مواضعه ؛ "ثم قضاوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاف"<sup>(1)</sup>. ورغم أن كتاب الله منزّه عن الاختلاف إلا أن المبتدئ الذي لا يدرك أسرار اللغة ووجوه التعبير قد يتوهم التناقض في بعض المواضع ؛ ولأجل ذلك رد ابن سريج على أحد المتأخرين بقوله : "اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله (ص) بحضرة رجال وبين ظهرائي قوم ، وكانوا أحرص الناس على أن يجدوا فيه مغزاً أو مطعناً ؛ فلو كان عندهم مناقضة لتعلقوا بها وأسرعوا بالردّ عليه، ولكن القوم علموا وجهلت ؛ فلم ينكروا ما أنكرت "<sup>(2)</sup>.

ولشدة ارتباط معاني القرآن ببعضها - فإن مقيدته يقيده مطلقه ، وخاصه يخصص عامه وناسخه ينسخ منسوخه ، وهذا باب كبير من أبواب الارتباط ، ومن أمثلة هذا الارتباط أنك تجد قوله تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ..... وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) <sup>(3)</sup> يخصصه قوله تعالى: ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ) <sup>(4)</sup> وكأنه قال : من دخل المسجد الحرام كان آمناً إلا من كان عليه القصاص ، وتجد قوله تعالى: ( يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ... ) <sup>(1)</sup> يخصصه قوله : ( لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ) <sup>(2)</sup> كأنما قال :أحل لكم صيد البر إلا وأنتم حرم . أما النسخ فليس لاختلاف الآيات وإنما لاختلاف الأحوال ؛ فلما اختلفت هذه الأحوال اختلفت معها الأحكام ؛ ولهذا لا يوجد في كتاب الله آيتان ترفع إحداهن معنى الأخرى إلا في النسخ ؛ وهو وجه معلوم ومقصود ؛ يقول أبو إسحاق الإسفراييني(\*) : " إذا تعارضت الآي ، وتعدّر فيها الترتيب والجمع - طلب التاريخ وترك المتقدم منها بالمتأخر ؛ ويكون ذلك نسخاً ؛ وإن لم يوجد التاريخ وكان الإجماع على استعمال إحدى الآيتين - علم بإجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل به ؛ ولا يوجد في القرآن آيتان تعريان عن هذين الوصفين " <sup>(3)</sup>. ولما كان الأمر كذلك فقد اتضح أن المعاني القرآنية إنما تتكامل ولا تتعارض

(\*) ابن قتيبة هو العلامة الكبير ذو الفنون أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، قال أبو بكر الخطيب كان ثقة ديناً فاضلاً ، من تصانيفه : غريب القرآن ، غريب الحديث ، كتاب المعارف ، كتاب مشكل القرآن ، كتاب مشكل الحديث ، كتاب عيون الأخبار ، كتاب المسائل ، كتاب أعلام النبوة

وقد ولي قضاء الدينور ، وكان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس "سير أعلام النبلاء 13 / 298".

(1) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : تحقيق أحمد صقر ، ط/ الأولى دار إحياء العربية القاهرة سنة 1954م ، ص 22 .

(2) البرهان 54/2.

(3) سورة آل عمران الآية 97.

(4) سورة البقرة الآية 178 .

(1) سورة المائدة الآية 4 .

(2) سورة المائدة الآية 95 .

(\*) أبو إسحاق الإسفراييني : هو إمام الشافعية في زمانه ولد سنة 341 ، كان الناس يقولون عنه - لسعة علمه - لو رآه الشافعي لفرح به ، وقد بالغ

القدوري وذهب إلى أنه أفقه وأنظر من الشافعي نفسه ، توفي سنة 418هـ. "انظر البداية والنهاية 3/12".

(3) البرهان 48/2.

ولا تختلف ولا تتناقض ، ولكن رغم ذلك فإن هنالك من الأساليب القرآنية البليغة ما توهم المبتدئ بالاختلاف ؛ ومن ذلك الآتي : (4)

#### أولاً : وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى :

وهذا النوع يتوهم المبتدئ الاختلاف فيه لاختلاف الأوصاف باختلاف الأطوار ؛ وذلك كقوله في خلق آدم أنه من تراب ؛ ومرة من حمأ مسنون (\*) ومرة من طين لازب (\*\*) ومرة من صلصال كالفخار (\*\*\*) ؛ فهذه الأمور - وإن اختلفت - فهي ذات أصل واحد ، إذ أن التراب تحوّل إلى حمأ مسنون وطين لازب وصلصال جاف .

#### ثانياً : اختلاف التعبير باختلاف المواقف والموضوعات :

معلوم أن من البلاغة أن يكون لكل كلام مقام ولكل حديث موضع ؛ فالذي يصلح في موقف لا يصلح في موقف آخر ، ولا شك أن مواقف القيامة مختلفة متنوعة ؛ ولذلك قال تعالى في موقف قوله تعالى : ( وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْنُونُونَ ) (1) وقال تعالى : ( فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ) (2) ثم قال في موقف آخر قوله تعالى : ( فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ..... يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ) (3) وساعة أخذ المجرمين غير ساعة حسابهم وسؤالهم ؛ ولهذا اختلفت العبارات باختلاف المواقف والمقامات والموضوعات

#### ثالثاً : اختلاف الأمرين في جهتي الفعل :

قد يفعل العبد فعلاً عادياً ويكون له تأثير لا يستطيعه بشر ، ولا شك أن هذا التأثير إنما هو فعل الله ؛ وإن كان الكسب كسب البشر ، ومن ذلك قوله تعالى : ( فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ) (1) ومثله : ( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ

(4) المصدر السابق .

(\*) حمأ مسنون : طين رطب " انظر جامع البيان 20 / 14 " وقيل : طين منتن "انظر فتح القدير ط/ دار الفكر بيروت " دت " 132 / 2 .

(\*\*) الطين اللازب : اللاصق .

(\*\*\*) الصلصال : الطين الجاف الأجوف الذي له صلصلة "انظر الجامع لأحكام القرآن 1 / 296" وفي رواية الضحاك أن آدم خلق من طين فأقام أربعين سنة ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ثم من صلصال أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة "الجامع لأحكام القرآن 119/19" .

(1) سورة الصافات الآية 24 .

(2) سورة الأعراف الآية 6 .

(3) سورة الرحمن الآية 41 ، وقيل إن لهم في يوم الموقف وقتاً يمنعون فيه من الكلام "الجامع لأحكام القرآن 9 / 97" بقول القرطبي "قلنا القيامة مواطن فمواطن يكون فيه سؤال وكلام وموطن لا يكون ذلك فيه ، قال عكرمة : القيامة مواطن يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها ، وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام : هل عملتم كذا وكذا؟ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تفرغ وتوبيخ فيقول : لهم لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قطرب هذا القول "الجامع لأحكام القرآن 10 / 61 " ويقول الشوكاني : لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم لم عملتم كذا وكذا؟ ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عنه أيضاً في قوله : "فيؤخذ بالناصي والأقدام" قال تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب في التنور " فتح القدير 5 / 139" .

(1) سورة الأنفال الآية 17 .

رَمِيَتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (2) فقد أضيف القتل والرمي للعبد على جهة الكسب والمباشرة ونفي عنه من جهة

التأثير

رابعاً : الاختلاف في الحقيقة والمجاز :

قد يأتي في القرآن لفظان متماثلان ويكون أحدهما على الحقيقة والآخر على المجاز؛ فينفي أحدهما ويثبت الآخر؛ فيتوهم من لا يعرف التعبير أن المعنى قد تناقض؛ ومن ذلك قوله تعالى: ( وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ) (3) فأثبت سكر الناس على المجاز؛ لكون عقولهم قد غابت من هول ما أذهلهم دون تناول المسكر؛ ثم نفي عنهم السكر بتعاطي المسكرات على الحقيقة، وهذا معنى ظاهر لا يحتاج إلى كثير توضيح.

1- تناسب المفردات :

لا يخفى على كل متأمل أن النظم المحكم والرصف المتفرد والبناء المتلاحم من أخص خصائص القرآن وأدق صفاته، وقد ذكر الإمام القرطبي أن القرآن قد نظمت مفرداته نظماً محكماً لا يلحقها معه خلل ولا يمكن تغييره أو تبديله (1) وهذا النظم المتفرد هو سرّ من أسرار إعجازه؛ يقول الجرجاني: " أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه ... فلم يجدوا في الجميع لفظة ينبو مكانها أو ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح منها؛ بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ونظاماً أعجز الجمهور ونظاماً والتاماً وإتقاناً وإحكاماً " (2).

والحق أن التناسب بين المفردات - أو النظم كما يسميه العلماء - قد كان من أقدم الأنواع التي تناولها العلماء وحاولوا إثبات الإعجاز بها، وقد ألف الجاحظ (\*) في ذلك كتاباً سماه "نظم القرآن" يقول عنه الخياط (\*\*): "من قرأ كتاب عمرو الجاحظ ... نظم القرآن" ... علم أن له في الإسلام غناء عظيماً لم يكن الله ليضيعه له؛ فإنه لا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد (ص) غير كتاب الجاحظ " (3)

(2) سورة الأنفال الآية 17، قيل إن هذا الرمي إنما كان في حصب رسول الله (ص) يوم حنين لما لم يبق في ذلك اليوم أحد إلا وقد أصابه ذلك، وقيل أنها كانت يوم بدر وهو أصح؛ لأن السورة بديرة؛ وذلك أن جبريل عليه السلام قال للنبي (ص): خذ قبضة من التراب فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، وقال محمد بن يزيد: وما رميت بقوتك إذ رميت ولكنك بقوة الله رميت " الجامع لأحكام القرآن 286/7".

(3) سورة الحج الآية 2.

(1) الجامع لأحكام القرآن 10/4.

(2) دلائل الإعجاز ص 39.

(\*) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بن محبوب الكناني ولد عام 150 هـ وتوفي عام 255 هـ، نشأ بالبصرة وهو من أكابر العلماء وأعظم كتّاب العرب على الإطلاق، وقد كان - رحمه الله - أعجوبة الدنيا التي يشار إليها بالبنان؛ وما ذلك إلا لانتهاه معارف عصره إليه وتميزه بغرارة العلم وعلو الأسلوب وحسن التعبير وقوة الحجة وسطوع البرهان ووضوح الدليل "مقدمة عبد السلام هارون لكتابه الحيوان ط الخانجي القاهرة سنة 1985 م، 1/ 25"، ورغم اشتهار الجاحظ بالبلاغة والأدب وتميزه في ذلك تميزاً جعله في قمة الأدباء والبلاغيين - إلا أنه قد صنّف في معارف كثيرة وفي علوم متعددة حتى بلغت كتبه 360 مصنفاً.

(\*) هو أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط، من أعيان المعتزلة، كان فقيهاً، صاحب حديث، واسع الحفظ لمذاهب المتكلمين، وكان زعيم فرقة من فرق المعتزلة تعرف بالخياطية (انظر مقدمة الدكتور نبيرج لكتاب الانتصار 15 - 22).

(3) الانتصار ص 436.

وقد ألف الجاحظ هذا الكتاب رداً على أستاذه إبراهيم بن سيار النظام الذي أثبت الإعجاز في تناسب الأخبار القرآنية مع الواقع دون تناسب مفرداته وجمله في أنفسها<sup>(4)</sup> ، يقول الجاحظ عن كتابه هذا: "فلم أدرع فيه مسألة لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حقّ وليس تأليفه "أي نظمه" بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ودلالة" (1) وإذا كان الجاحظ هو أول من صنف في النظم وتناسب المفردات - فإن عبد القاهر الجرجاني قد كان أول من فصل في ذلك ؛ وشرح هذا النظم بصورة لم يسبق لها - في تاريخ الإعجاز القرآني - مثل ؛ فأخرج كتابه العظيم "دلائل الإعجاز" ، ورغم كل ذلك إلا أن مفهوم النظم عند كلا الرجلين يختلف اختلافاً بيناً ؛ وتفصيل ذلك كالآتي :

1- النظم عند الجاحظ مفهوم واسع يتناول المعاني والألفاظ وغيرها ؛ فهو ضمّ اللفظ إلى اللفظ والحرف إلى الحرف والجملة إلى الجملة (2) حتى يكون الكلام متلاحم الأجزاء وتكون كل كلمة إلى جنب أختها متوافقة متناسبة فيصير الكلام حينئذ سلس النظام خفيفاً على اللسان كأنما سبك سبكاً واحداً وأفرغ إفراغاً واحداً<sup>(3)</sup> .

2- النظم عند الجرجاني ضمّ مخصوص يتوخى فيه معاني النحو وأحكامه ، وليس هو النطق بالكلمة إثر الكلمة ولا ضمّ المفردة إلى المفردة كيفما اتفق ، ومعاني النحو - عند الجرجاني - هي العلاقات الناشئة بين أحاد الكلم داخل السياق (1) ومن الأمور الهامة جداً - في هذا المضمار - أن النظم عند الجرجاني يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى ولا شأن له بحلاوة الألفاظ وطلاوة الصوت فيها ولا بحسن أجراسها وغير ذلك من الأمور الصوتية المحضة .

ويرى الجرجاني أن علاقة المتكلم - عموماً - بالألفاظ المفردة أشبه ما تكون بعلاقة الصانع بالمادة الخام ؛ إذ أن الصانع لم يصنع هذه المادة نفسها فيما صنع ؛ وإنما غاية ما فعله هو أنه أعاد تشكيلها وفق تصوّر خاص وبتصميم بعينه ، كما أن القرآن لم يأت بالألفاظ العربية التي يعرفها العرب ويستخدمونها من قبل ، وإنما أعاد نظمها بصورة جديدة حتى تناسب المعاني الإلهية العظيمة ، ولهذا فإن الفرق بين القرآن وسائر أنواع الكلام ليس في المفردات المستخدمة ؛ وإنما في النظم والتركيب والتناسب حتى تؤدي المعنى المقصود ، وقد ذهب الجرجاني إلى أن الألفاظ - التي هي أوضاع اللغة - لم توضع لتعرف

(4) أنكرت نظرية النظام الإعجاز البلاغي للقرآن ، و كان مفادها : أن الإعجاز كامن في المضامين والمعاني القرآنية وما تشتمل عليه من الغيبيات ، سواء كانت هذه الغيبيات ماضية أو حالية أو مستقبلية ، ولا عبرة بالأسلوب والنظم وخلافه من الأمور البلاغية في إثبات إعجاز القرآن ؛ يقول ( ، ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة ، وإنما وجه (البغدادي إن النظم يرى أن: "نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي (ص) الدلالة على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، وأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرين على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف" /9/ البغدادي: عبد القاهر: الفرق بين الفرق وبين الفرق الناجية منهم تحقيق محمد زاهد الكوثري ط/1 القاهرة ص 143.

(1) رسائل الجاحظ 147-148.

(2) الجاحظ : عمرو بن بحر : البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ، ط الخانجي القاهرة سنة 1985م 2/1، 339/69.

(3) البيان والتبيين 1/66-67.

(4) دلائل الإعجاز 420، 488، 539.

معانيها في أنفسها ، ولكن ليضم بعضها إلى بعض فيعرض فيما بينها فوائد ومعان ، ولذلك فإن مهمة المتكلم عند الجرجاني هي الإسناد (2)؛ إذ أن الأمر إنما هو أمر علاقات بين المفردات وليس أمر مفردات مجردة ؛ ويمثل هذه الفكرة النظرية يعالج الجرجاني نظريته كلها ؛ فيوضح أنواع العلاقات بين المفردات التي تترتب حسب ترتب المعاني في الأذهان (3) وهذا الترتيب لا يقوم على مجرد ضم كلمة إلى أخرى كيفما جاء واتفق ؛ وإنما يقوم على التعلّق وتلاقي المعاني على الوجه الذي يرتضيه العقل .

ولما كان الأمر على الوجه الذي ذكر فإن المفردة عند الجرجاني لا تحسن بنفسها ؛ وإنما تكتسب حسننها من خلال علاقاتها بالمفردات الأخرى داخل النظم ؛ فالألفاظ إنما تكون حسنة أو قبيحة بحسب تناسبها أو عدمه داخل النظم المختلفة ؛ يقول الجرجاني : "إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة وأن الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك" (1).

ولما كان الأمر كذلك فإن المفردات القرآنية لشدة ترابطها وقوة انسجامها وتناسبها تنتاج الدلالات والمعاني الإلهية من بينها ؛ قال تعالى : (وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ) (2). فتراه قد ناسب بين الصوم وحفظ الفرج

(2) دليل ذلك أنك إذا قلت : "خرج زيد" لم تفعل في مفردات اللغة شيئاً ولم تعرّف السامع معنى خرج في اللغة ولا تعرّفه بزيد الذي كان يعرفه ابتداء ، وإنما غاية ما فعلته أنك أعلمته بإسناد الخروج إلى زيد .

(3) يشرح الجرجاني كافة النظم الممكنة التي تتولد عن التفكير في قوله : الكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف ، وللتعلّق فيما بينها طرق معلومة ثم يشرح الجرجاني هذا التعلّق بصورة مفصلة مطولة ؛ وهذا التعلّق إنما هو أمور باطنية يجريها العقل وتعلّق بالفكر أشد ما يكون التعلّق ؛ فعند التفكير تترتب المعاني في الذهن فتترتب الألفاظ في الكلام حسب ترتب المعاني في الذهن كالمرأة الصقلية التي تعكس ما يقع عليها بصورة دقيقة مماثلة ، وعندما ينشأ هذا التفكير تتاح للذهن خيارات متعددة وتراكيب متنوعة فينتقى منها ما يعبر به عن الفكرة التي يراد إبلاغها ، وهذه الاحتمالات التجريدية التي رصدها الجرجاني يضاف إليها عدة ملاحظات لها أهميتها في مجال تنظيم الصياغة ؛ وهي : أنّ هذا التشكيل التجريدي يتسع مدها بإدخال عناصر إضافية على تكوين الجملة كالإفراد والتنثنية والجمع والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار "دلائل الإعجاز ص 47".

(1) دلائل الإعجاز ص 46. يقول الجرجاني: " ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرًا ونهياً واستخباراً وتعجباً وتوذي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة ، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت من صاحبها على ما هي موسومة به؟ ..... وهل يقع في وهم وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم؟ ..... وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكّن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معانها وبالقلق والنبؤ عن سوء التلازم وأن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للثانية في مؤداها ؟ " دلائل الإعجاز ص 53؛ ويقول أيضاً: "فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ على أفرادها..... دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم - لما اختلف بها الحال وكانت إما أن تحسن أبدأً أو لا تحسن أبدأً" دلائل الإعجاز ص 48.

(2) سورة الأحزاب الآية 35.

؛ إذ أن الصوم أكبر عون على كسر الشهوة<sup>(3)</sup> كما قال (ص) : "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أخص للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء"<sup>(1)</sup>.

وقال تعالى : ( الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ) فقد ناسب بين الشمس والقمر وجمع بينهما ؛ لأنهما سماويان ، وجمع بين النجم " وهو النبات الذي لا ساق له" (2) - وبين الشجر " وهو النبات الذي له ساق" لأنهما أرضيان وربط بين السجود والأرض لنتاسبهما ؛ لأن السجود إنما يكون في الأرض ، كما ربط بين الحسبان - وهو أيضاً خضوع في الحركة - والسجود ؛ فانسجمت المفردات وتلاقت تلاقياً نتائج الحسن من بينه .

ويراعي الأسلوب القرآني في استخدام المفردات انسجامها مع المعنى الكلي والجو العام ؛ ودليل ذلك في أمثلة كثيرة جداً ؛ منها وصف الأرض بأنها "هامدة" في قوله تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ... ) (3) ووصفها بأنها "خاشعة" في قوله تعالى : ( وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَىٰ الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ... ) (4) فوصف الأرض في الآيات الأولى بأنها (هامدة) وفي الثانية بأنها (خاشعة) وبيّن وجه التناسق في أن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج مما يتسق معه تصوير الأرض "هامدة" وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع ويتسق معه تصوير الأرض "خاشعة"<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت المفردات القرآنية تتناسب مع ما قبلها وما بعدها من المفردات وتتناسب مع المعنى العام – فإنها تتناسب مع كل مفردات الجملة أيضاً ؛ إذ يمكن في كثير من الأحوال أن يجعل في أول الكلام من المفردات ما يدل على المفردة الأخيرة ؛ ومن ذلك ما سماه البلاغيون "بالإرصاد" أو "التسهيم"<sup>(\*)</sup> ؛ ومنه قوله تعالى (فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ

(3) تفسير القرآن العظيم 371/6.

(1) الإمام مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري : صحيح مسلم : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط/ دار إحياء التراث العربي 1018/2 حديث رقم 1400 ، الإمام البخاري : محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى ديب البغا ط/ دار ابن كثير بيروت سنة 1987م ، 672/2 حديث رقم 1806 .

(2) النجم مشتق من نجم الشيء أي : طلع وظهر ، وقد أطلق لفظ النجم على النبات الذي لا ساق له، وهذا المعنى معروف ومشهور عند العرب ؛ قال الشاعر : لقد أنجم القاع الكبير عضاهه وتم به حيا تميم ووائل وقال زهير بن أبي سلمى  
مكّل بأصول النجم تنسجه ربح الشمال لضاحي مائه حيك (انظر الجامع لأحكام القرآن 153/17 – 154)

(3) سورة الحج الآية 5 .

(1) سورة فصلت الآية 39 .

(2) في ظلال القرآن ص 3125.

(\*)الإرصاد ويسمى التسهيم أيضا ، وهو: أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز كقول زهير سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم وقول الآخر إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع (انظر الإيضاح في علوم البلاغة ج: 1 ص: 326) .

يَظْلُمُونَ<sup>(3)</sup> وقوله تعالى : ( وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ<sup>(4)</sup> ) ولذلك أمثلة كثيرة جداً.

وليس معنى عدم تعلق المفردة بالمتكلم - كما ذكر - انفكاكها عنه بالكلية ؛ إذ لا يمكن أن ينكر أحد أثر المتكلم في اختيار هذه المفردات ودقة تحريه في معناها ، ومعلوم أن السياق والنظم كما يكسب المفردة جمالها فإنه يكسبها أيضاً بعض معناها<sup>(5)</sup> ولهذا كان لا بد من اعتبار أمرين هما : دقة معنى المفردة المختارة من اللغة ؛ وشدة ارتباطها مع أحوالها وانسجامها وتناسبها في السياق العام ، ومعلوم أن مفردات القرآن - لتلك الصفة - لا يصلح غيرها لو جعل في مكانها ؛ يقول القرطبي : " لو نزعنا منها لفظة ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد "<sup>(1)</sup> والناس - كما هو معلوم بطبيعة الحال - يتفاوتون في إدراك المعاني الدقيقة للألفاظ ؛ ولأجل ذلك يتفاوتون في اختيار المفردات حتى تشكل كلاماً متكاملًا يعبر عن أغراضهم ، ولكن البليغ هو الذي يعرف كيف يختار من هذه المفردات ما هو أدلّ على إيضاح فكرته وتوصيل معناه ، وقد بلغ القرآن العظيم الغاية في ذلك ففاق كل كلام وأرعى على كل حديث ؛ يقول الجاحظ : " وقد يستخفت الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقّ بذلك منها ، ألا ترى أن الله تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك المطر ؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين الغيث - فهم لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحقّ بالذكر وأولى بالاستعمال "<sup>(2)</sup>.

وإذا أردنا أدلة ظاهرة على تخيّر القرآن للمفردات واختيارها بدقة مع مراعاة معانيها الدقيقة فانظر إلى الفروق في مواضع ذكر " الخوف والخشية " فالخشية أعلى من الخوف وأعظم منه ؛ ولذلك خصت الخشية بالله وخصّ الخوف بالحساب في قوله تعالى ( يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ )<sup>(3)</sup> وفرّق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشئ وإن كان الخاشئ قوياً ، والخوف من ضعف الخائف وإن كان المخوف يسيراً ؛ ولذلك وردت الخشية في حقّ الله تعالى في قوله : ( وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَبُ مَنْ خَشِيَةَ اللَّهِ )<sup>(1)</sup> وقوله تعالى : ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ )<sup>(2)</sup> . ولكن رغم كل ذلك فقد جاء الخوف في حقّ الله تعالى في وصف الملائكة قوله تعالى : ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ

(3) سورة التوبة الآية 70.

(4) سورة يونس الآية 20.

(5) دلائل الإعجاز ص 260.

(1) الجامع لأحكام القرآن 76/1.

(2) البيان والتبيين 1/ 40.

(3) سورة الرعد الآية 21.

(1) سورة البقرة الآية 74.

(2) سورة فاطر الآية 28.

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ<sup>(3)</sup> فخالف تلك القاعدة لخصوصية هذا النظم الذي تنتاج عنه معنى لطيف ؛ وهو : أن الله تعالى لما ذكر الملائكة وقوتهم وشدتهم - عبر عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه ضعفاء ؛ ثم أردف ذلك بالفوقية الدالة على العظمة ( مِّنْ فَوْقِهِمْ ) فجمع بين الأمرين، ولما كان ضعف البشر معلوماً لم يحتج إلى التنبيه عليه<sup>(4)</sup>.

وانظر كذلك إلى مواضع استخدام "الفعل" و"العمل" في النظم القرآني حيث يتضح الفرق بين المعنيين وتظهر دقة اختيار القرآن للمفردات ؛ فـ"العمل" ما كان مع امتداد زمان كما في قوله تعالى: ( يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ )<sup>(5)</sup> وذلك لأن صنع التماثيل يستغرق زمناً ، ومثله قوله تعالى ( وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ )<sup>(6)</sup> حيث كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة . أما "الفعل" فلما فيه سرعة؛ وذلك نحو قوله تعالى : ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ )<sup>(7)</sup> وذلك لأنها إهلاكات وقعت من غير بطء ؛ ولهذا قال تعالى في شأن الملائكة قوله تعالى: ( وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ )<sup>(8)</sup> أي : في طرفة عين ، ولكن لما أراد السرعة في "العمل" عبر أيضاً عنه بـ"الفعل" ليكون القصد الإتيان بذلك "العمل" من غير توان<sup>(1)</sup> كما في قوله تعالى : ( وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ )<sup>(2)</sup> وقوله تعالى: ( وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكَاةِ فَاعِلُونَ )<sup>(3)</sup>.

ومعلوم أن المفردات العربية أدق المفردات على الإطلاق وأكثرها ؛ إلا أنها - رغم كثرتها - لا تتطابق ولا تترادف ؛ فإذا جعل مكان اللفظ لفظ قريب منه اختلف الكلام باختلاف اللفظ والمعنى ؛ ولأجل ذلك كان لكل لفظ معنى يناسبه ومقام يليق به ، وكان عمود البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه المناسب ؛ والكلام ألفاظ مترادفة متقاربة المعاني - في زعم أكثر الناس - والأمر فيها عند الحذاق بخلاف ذلك ؛ لأن لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها وإن اشتركتا في بعضها .

ولما كان الأمر يعتمد على دقة اختيار المفردات ثم إعادة تشكيلها داخل النظم - فإن هذه النظم تكسب هذه المفردات سمات جديدة وتصوغها في بنية سياقية شديدة الحساسية لا يدرك فيها الجزء إلا بتأمل الكل ؛ ولهذا كان النظم وتناسب المفردات من أهم الخصائص الأسلوبية للقرآن ؛ ولأجل ذلك فإنه ما من درس من دارجي الإعجاز القرآني قديماً إلا والنظم عنده قضية جوهرية في إثبات الإعجاز ؛ وإن اختلفت رؤى العلماء في تفسيره كالجاحظ والرماني والخطابي والباقلاني والقاضي عبد

(3) سورة النحل الآيات 49-50.

(4) السيوطي : معترك الأقران في علوم القرآن ، تحقيق علي محمد الجاوي ، ط/ دار الفكر بيروت سنة 1973 م ، 602/1.

(5) سورة سبأ الآية 13.

(6) سورة فاطر الآية 7.

(7) سورة الفجر الآية 6.

(8) سورة النحل الآية 50.

(1) السيوطي : معترك الأقران في علوم القرآن ، 602/1 .

(2) سورة الحج الآية 77.

(3) سورة المؤمنون الآية 4.

الجبار (\*) والجرجاني والرازي والزمخشري (\*\*\*) وغيرهم ، ولكن ما مهما يكن من أمر هذا الاختلاف في تفسير القضية إلا أنهم اتفقوا على أهميتها ، ومعلوم أن المفردات إذا تناسبت وتكاملت واتسقت حسنت بذلك الجملة أو الآية بأسرها .

### 3- تناسب الجمل :

الجملة هي مجموعة من الكلمات المتناسبة التي تؤدي معنى واحداً بصورة منفصلة وكذلك الآية ؛ إلا أن الآية قد تشتمل على جملة أو عدة جمل مترابطة ، وقد ذكر العلماء أن الآية سميت بذلك لأنها مكونة من مجموعة من المفردات ، والآية - في اللغة - هي : الجماعة ، وقيل : بل الآية - في اللغة - هي : العلامة ؛ فسميت الآية آية لأنها علامة انقطاع عما قبلها وانقطاع عما بعدها وقيل غير ذلك<sup>(1)</sup> ، وإذا كانت مفردات الجملة أو الآية متناسبة مع بعضها كما سبق - فإن الجمل أو الآيات المكونة للسورة أيضاً متناسبة ومتسقة مع بعضها ، وقد اعتنى الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون عناية شديدة بهذا النوع من التناسب ؛ فعن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال: " إذا حدثت عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده" <sup>(2)</sup>، وقال ابن مسعود : "إذا سألت أحداً من أصحابه: كيف يقرأ آية كذا وكذا؟ فليسأله عما قبلها وعما بعدها" <sup>(3)</sup> ، ويقول الشيخ ولي الدين الملوي : "والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؛ ففي ذلك علم جم"<sup>(1)</sup> وهذا العلم علم عظيم القدر عند العلماء ؛ يقول الجرجاني عنه : "اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة بعد أخرى - من أسرار البلاغة ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص والإقوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة - في ذوق الكلام - هم به أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ؛ فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل والوصل ؛ وذلك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة"<sup>(2)</sup> ويذكر الجرجاني أن هذا النوع من التناسب من أصعب الأنواع في البلاغة على الإطلاق ؛ يقول : "اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه خفي وغامض ودقيق وصعب - إلا

(\*) هو قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار أحمد بن الخليل الهمداني ، كان إمام أهل الاعتزال في زمانه ، وكان على مذهب الإمام الشافعي ، وكانت له كتب عديدة في الفقه والقرآن والحديث وعلم الكلام ، توفي سنة 415 هـ "انظر إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة 85-86".

(\*\*) هو محمود بن عمر أبو القاسم الزمخشري ، من أهل خوارزم ، عالم في الأدب واللغة والتفسير ؛ يقول عنه ابن الجوزي إنه "كان يتظاهر بالاعتزال" له من المصنفات "الكشاف" في التفسير و"المفصل" في النحو توفي بخوارزم 538 هـ "المنتظم 112/10 والبداية والنهاية 219/12".

(1) البرهان 169/1 وقيل سميت الآية آية لأنها : علامة على صدق من أتى بها وعلى عجز المتحدى بها.

(2) تفسير القرآن العظيم 7/1

(3) أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني : مصنف عبد الرزاق ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط ، 2 / المكتب الإسلامي بيروت ، سنة

1403 هـ / 2 / 365 .

(1) الإتيان 289/2 .

(2) دلائل الإعجاز ص 222.

وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب<sup>(3)</sup> ويقول عنه القزويني<sup>(\*)</sup>: "فن عظيم الخطر صعب المسلك دقيق المأخذ لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علما بكنهه إلا من أوتي في فهم كلام العرب طبعاً سليماً ورزق في إدراك أسرارهِ ذوقاً صحيحاً"<sup>(4)</sup> ولما كان هذا النوع من التناسب دقيقاً - فإن إحراره غايةً يتبارى عليها البلغاء والفصحاء ، ومعلوم أن العطف بين الجملتين لا يكون لمجرد التشريك ؛ وإنما شرطه أن يكون بين الجملتين ما يربطهما كالنظيرين والشريكين وتكون الأولى بسبب من الثانية<sup>(1)</sup>، فإذا لم يكن ذلك فعطفت على الأولى شيئاً ليس منه بسبب ولا هو مما يذكر به لم يستقم ؛ فلو قلت : خرجت من داري وأحسن الذي يقول بيت كذا - قلت ما يضحك منه ، ومن هنا عابوا على أبي تمام قوله :

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لأحدهما بالآخر<sup>(2)</sup>. وذكر الجاحظ أن أعرابياً سمع رجلاً - في زمان عمر بن الخطاب - يقرأ خطأ : "فإن زللت من بعد ما جاءتكم البيئات فاعلموا أن الله غفور رحيم" فقال الأعرابي : لا يكون<sup>(3)</sup>. وذلك لعدم المناسبة بين الجملة الأولى والثانية ؛ إذ أن الضلال بعد معرفة الهدى لا يقابل بالغفران والرحمة ، والصحيح في القرآن هو : (فإن زللت من بعد ما جاءتكم البيئات فاعلموا أن الله عزيز حكيم)<sup>(4)</sup>. ويروى أن أعرابياً سمع شخصاً يقرأ : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم) .

فقال : ما ينبغي أن يكون الكلام هكذا

فقيل : إن القارئ غلط ، والقراءة : ( وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ )<sup>(1)</sup>

فقال : نعم ، هكذا تكون فاصلة هذا الكلام ؛ فإنه لما عزَّ حكم<sup>(2)</sup>

ومن الطرائف في هذا النوع ما حكى عن عمر بن أبي ربيعة أنه أنشد عبد الله بن العباس رضي الله عنهما قوله:

تشطُّ غداً دار جيراننا

فقال له عبد الله :

(3) دلائل الإعجاز ص 231.

(\*) الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق له "الإيضاح" و " تلخيص المفتاح " وقد لخص فيه " مفتاح العلوم " للسكاكي ، يقول القنوجي عن الكتابين : "ومن الكتب النافعة في العلوم تلخيص المفتاح والإيضاح وهو يجري مجرى الشرح للتلخيص كلاهما لقاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي " مات سنة 739 هـ .

(4) القزويني : جلال الدين : الإيضاح ، ط/ دار إحياء العلوم بيروت سنة 1998 م . ص 145.

(1) يقسم الجرجاني الجمل إلى ثلاثة أضرب في ارتباطها ببعضها : (أ) جملة حالها مع التي قبلها حال الموصوف مع الصفة وهنا يترك فيها العطف لأنه يكون مثل عطف الشيء على نفسه . (ب) جملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله إلا أنه يشاركه في الحكم ويدخل معه في معنى فيكون حقها العطف (ج) جملة ليست في شيء من الحاليين بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه في شيء وحق هذه ترك العطف البتة " دلائل الإعجاز ص 243 وما بعدها".

(2) دلائل الإعجاز ص 223.

(3) البيان والتبيين 339/2.

(4) سورة البقرة الآية 209.

(1) سورة المائدة الآية 38

(2) الأزراي : نقي الدين أبو بكر بن عبد الله الحموي خزانة الأدب تحقيق عصام شيعتو ط / مكتبة الهلال بيروت 1987 م ، 1 / 176.

**وللدار بعد غد أبعد**

فقال عمر : هكذا والله قلت

فقال عبد الله بن العباس : وهكذا يكون

وتقرب من هذه القصة قصة عدي بن الرقاع حين أنشد الوليد بن عبد الملك - بحضرة جرير والفرزدق - قصيدته التي مطلعها :

**عرف الديار توهُماً فاعتادها**

حتى انتهى إلى قوله:

**تزجي أغن كأن إبرة روقه**

ثم شغل الوليد عن الاستماع ؛ فقطع عدي الإنشاد ؛ فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟

فقال جرير: أراه يستلب بها مثلاً

فقال الفرزدق : إنه سيقول:

**قلم أصاب من الدواة مدادها**

فلما عاد الوليد إلى الاستماع وعاد عدي إلى الإنشاد قال البيت

فقال الفرزدق: والله لما سمعت صدر بيته رحمته ، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسدا(1)

ويقول ابن أبي الأصبع عن هاتين القصتين : (الذي أقوله إن بين ابن عباس وبين الفرزدق - في استخراجهما العجزيين

- كما بينهما في مطلق الفضل (أي : بعيد) ، وفضل ابن عباس رضي الله عنهما معلوم ، وأنا أذكر الفرق ؛ فإن بيت عدي

بن الرقاع من جملة قصيدة تقدم مطلعها مع معظمها وعلم أنها دالية مردفة بألف ، وهي من وزن قد عرف ، ثم تقدم في

صدر البيت ذكر ظبية تسوق خشفا لها قد أخذ الشاعر في تشبيه طرف قرنه بالقلم في سواده ، وهذه القرائن لا تخفى على

أهل الذوق الصحيح أن فيها ما يدل على عجز البيت ؛ بحيث يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حذاق الشعراء ، وبيت

عمر بيت مفرد لم تعلم قافيته من أي ضرب هي من القوافي ؛ ولا رويه من أي الحروف ؛ ولا حركة رويه من أي الحركات

؛ فاستخراج عجزه ارتجالاً في غاية العسر ونهاية الصعوبة لولا ما أمد الله تعالى به هؤلاء الأقوام من المواد التي فضلوا

بها عن غيرهم (2)

ومن أنواع التوافق المحكم - الربط بين قوله تعالى : ( لَأَ تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ) (3) وقوله تعالى : ( قَدْ جَاءَكُمْ

بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ) (4) في سياق واحد متناسب متناعم.

(1) المصدر السابق .

(2) المصدر السابق .

(3) سورة الأنعام الآية 103 .

(4) سورة الأنعام الآية 104 .

ومن ذلك قوله تعالى : ( وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) (5) ولما حرم الله المسكر صيانة للعقل - الذي هو أشرف ما في الإنسان - فقد ربط بين ذكر العقل والسكر ، وجعل هذا السكر في مقابل الرزق الحسن تلميحاً إلى أنه غير حسن(1).

ويروى أن مروان قرأ قوله تعالى : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (2) فقال لبوابه: " اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لتعذبين أجمعون" فقال ابن عباس : " ما لكم ولهذه الآية ؛ إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب" ثم تلا ابن عباس الآية التي قبلها : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ) (3) ووصلها بقوله (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ) ثم قال: "سألهم النبي (ص) عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ؛ فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه" (4) .

ولما كان الأمر كذلك فإن الكلام البليغ ينبغي أن يكون متناسباً متوافقاً كأنما سبك سبكاً واحداً وأفرغ إفراغاً واحداً ؛ وقد سبق أن الجمل القرآنية قد بلغ التناسب فيها حد الإعجاز؛ وإن كان هذا التناسب قد يخفي في بعض الأحوال ؛ ولكنه عندما يتكشف تتكشف عنه لطائف المعاني ؛ ومن ذلك قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ..... إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَاتَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَاتَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (1) ؛ يقول القرطبي : "قال تعالى: (فإنك أنت العزيز الحكيم) ، ولم يقل : "فإنك أنت الغفور الرحيم" ولو قال ذلك لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه ؛ وذلك مستحيل؛ فالتقدير إن تبقيهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم - فإنهم عبادك ، وإن تهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم - فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده ، الحكيم فيما تفعله ؛ تضل من تشاء وتهدي من تشاء .... وقد طعن على القرآن من قال إن قوله : (إنك أنت العزيز الحكيم) ليس بمشاكل لقوله : (وإن تغفر لهم) ؛ لأن الذي يشاكل المغفرة "فإنك أنت الغفور الرحيم" والجواب : أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله ، ومتى نقل إلى الذي نقل إليه - ضعف معناه ؛ فإنه ينفرد "الغفور الرحيم" بالشرط الثاني فلا يكون له بالشرط الأول تعلق ، وهو على ما أنزله الله عز وجل واجتمع على قراءته المسلمون - مقرون بالشرطين كليهما أولهما وآخرهما ؛ إذ تلخيصه : إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم في الأمرين كليهما من التعذيب

(5) سورة النحل الآية 67 .

(1) تفسير القرآن العظيم 4/498 .

(2) سورة النساء الآية 188 .

(3) سورة النساء الآية: 178 .

(4) صحيح مسلم 4/ 2143 حديث رقم 2778 ، تفسير القرآن العظيم 1/437 ، جامع البيان 4/208 ، الجامع لأحكام القرآن 4/306 .

(1) سورة المائدة الآيات 16-18.

والغفران ، فكان (العزیز الحکیم) ألیق بهذا المكان لعمومه فإنه یجمع الشرطین ولم یصلح "الغفور الرحیم"؛ إذ لم یحتمل من العموم ما احتمله (العزیز الحکیم) ... والشرطین المذكورین أولى وأثبت معنی فی الآیة<sup>(2)</sup> ویقول الطبري: " إن تعذب هؤلاء الذین قالوا هذه المقالة بإماتتک إیاهم علیها - فإنهم عبادک مستسلمون لک لا یمتنعون مما أردت بهم ولا یدفعون عن أنفسهم ضرا ولا أمرا تتألمهم به ، وإن تغفر لهم بهدایتک إیاهم إلى التوبة منها ؛ فستتر علیهم - فإنک أنت العزیز فی انتقامه ممن أراد الانتقام منه لا یقدر أحد یدفعه عنه ، الحکیم فی هدایته من هدی من خلقه إلى التوبة وتوفیقه من وفق منهم لسبیل النجاة من العقاب"<sup>(3)</sup>.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ( وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا لَنَا قَطَنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ اصْبِرْ عَلٰی مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ )<sup>(1)</sup> فالمناسبة بین ( اصْبِرْ عَلٰی مَا يَقُولُونَ ) و ( وَادْكُرْ عَبْدَنَا ) هي أنه أمر أن یتقوى علی الصبر بذكر داود علی العبادة والطاعة ، أو أن الله أمره الله أن یعرفهم أن الأنبياء علیهم السلام مع طاعتهم كانوا خائفين منه ، وهذا داود مع قوته علی العبادة لم یزل باکیا مستغفراً فكیف حالهم مع أفعالهم .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ( إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّيَّ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ )<sup>(2)</sup> فالمناسبة بین أخذه بنواصي الخلق وأنه علی صراط مستقیم هي: أنه لما أخبر أنه آخذ بنواصي الخلق لا یخرجون عن قبضته - أخبر أن هذا طریق لا یعدل عنه ولا یخفى علیه فيه مستتر ، أو قد يكون المعنى أنه رغم كونه آخذ بنواصي الخلق إلا أنه لا یظلم ولا یرید إلا العدل والطریق المستقیم<sup>(3)</sup>.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ )<sup>(4)</sup> فربط بین السؤال عن الأهلة وإتيان البيوت من ظهورها والفلح: كأنما یصف حال من عمل عملاً ولم یسلك طرقه المعروفة فإنه - بطبیعة الحال - لن یفلح ؛ وإنما یفلح من عمل الأعمال آتياً البيوت من أبوابها ؛ فجعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن الطریق الصحيح ؛ أي: أن سؤالهم عن حادثة فلكية قبل تعلمهم الفلك بوسائل إدراكه المعروفة كإتيان البيوت من ظهورها<sup>(5)</sup>.

(2) الجامع لأحكام القرآن 6 / 378.

(3) جامع البيان 7 / 140.

(1) سورة ص الآيات 16 - 17.

(2) ابن الجوزي: زاد المسير 7 / 110.

(3) زاد المسير 4 / 119.

(4) سورة هود الآیة 56.

(5) سأل اليهود عن الأهلة واعترضوا بهذا السؤال علی النبي (ص) فقال معاذ: یا رسول الله إن اليهود تغشانا ويكثرن مسألتنا عن الأهلة فما بال الهلال یبدو دقیقاً ثم یزید حتى یستوي ویستدير ثم ینتقص حتى یعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآیة . وقيل إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمین النبي (ص) عن الهلال وما سبب محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس قاله ابن عباس وقتادة والربیع وغيرهم " الجامع لأحكام القرآن 2 / 342 " یقول الشوكاني: "وجه اتصال إتيان البيوت بالسؤال عن الأهلة والجواب بأنها مواقيت للناس والحج أن الأنصار كانوا إذا حجوا لا یدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بیته بعد إحرامه قبل تمام حجه ؛ لأنهم یعتقدون أن المحرم لا یجوز أن یحول بیته وبین السماء حائل وكانوا

ولما كانت الجمل القرآنية شديدة التناسب قوية الترابط والاتساق - فإن أجزاء السورة كلها لابد أن تكون كذلك ، وهذا ما جعل أجزاء السورة متناسبة أيضاً مع بعضها.

#### 4- تناسب أجزاء السورة الواحدة :

تمثل السورة قطعة قائمة برأسها من القرآن لها مميزاتها وخصائصها التي تجعلها كلاً متكاملًا ، وقد سميت السورة سورة لإحاطتها بآياتها وأجزائها كإحاطة السور بالبيوت أو السوار بالمعصم<sup>(1)</sup> وقيل السورة بمعنى المرتبة ؛ وذلك لأن الآيات مرتبة فيها ترتيباً مناسباً<sup>(2)</sup> ولما كان الأمر كذلك فإن كلمة "سورة" أيضاً تشير - وبصورة مباشرة - إلى الترتيب والتناسب والانسجام كما يشير لفظ "قرآن" و "آية" فيما سبق .

والحق أن مفردات القرآن متناسبة مع بعضها وكذلك الجمل وأجزاء السورة كلها ، ولكل سورة طابعها الخاص المميز الذي لا يشبهه طابع السورة الأخرى ؛ وإن كانتا تشتركان في إطار واحد عام ؛ يقول سيد قطب : "يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة من سور شخصية ؛ لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس ، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص ، ولها جو خاص يظل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو ، ولها إيقاع موسيقي خاص إذا تغير في ثنايا السياق - فإما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة ، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً" (3).

ولعل الناظر المتأمل ليدرك هذا التناسب في سور القرآن كلها ، وإذا أخذت سورة البقرة كمثال - فإنك تجد قضية الاستخلاف الإلهي للإنسان وقضاياها المتعددة ، وبدء الجولة في هذه السورة يلتحم بختامها ؛ فيبدأ السياق بتقرير أن الله خلق ما في الأرض جميعاً للإنسان ثم يعقب بقضية استخلاف آدم ثم يعقبها بقصة بني إسرائيل وذكر عهد الله معهم ونكثهم له ونعمته عليهم وجحودهم بها ورتب على ذلك حرمتهم من الخلافة ؛ فكانت هناك صلة ظاهرة بين استخلاف آدم واستخلاف بني إسرائيل<sup>(1)</sup> وفي سياق ذلك يعرض القضايا المتعددة التي تخدم الغرض العام ، وكل قضية تشكل وحدة متكاملة وتعرض في إطار جزئي خاص ؛ فيمثل الإنفاق - الذي هو أحد الأوامر الإلهية للإنسان المستخلف - بصورة في غاية الروعة ؛ يقول سيد قطب : "إن هذا التناسق الجميل الملحوظ في ترتيب كل مشهد على حدة وفي طريقة عرضه وتنسيقه ، وهذا التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى بل إنه ليمد رواقه ؛ فيشمل المشاهد مجتمعة من بدنها في هذا الدرس إلى منتهاها ، إنها جميعاً تعرض في محيط متجانس محيط زراعي : حبة أنبتت سبع سنابل ... صفوان عليه تراب فأصابه وابل ... جنة بربرة فأتت

يتسمنون ظهور بيوتهم ، قال أبو عبيدة إن هذا من ضرب المثل والمعنى ليس البر أن تسالوا الجهال ولكن البر التقوى واسألوا العلماء كما تقول أتيت هذا الأمر من بابه" فتح القدير 1/ 189.

(1) البرهان 1/ 163.

(2) المصدر السابق .

(3) في ظلال القرآن ص 27- 28.

(1) المصدر السابق .

أكلها ضعفين ... جنة من نخيل وأعناب ... حتى الواابل والطل والإعصار التي تكمل محيط العرض الفني المثير ... إنه القرآن كلمة الحق الجميلة من لدن حكيم خبير" (2).

وكذلك الأمر في سورة الأنعام حيث يبلغ سياق السورة حد الروعة في كل مشهد وفي كل موقف مع تناسق في منهج العرض للمشاهد والمواقف؛ إن السياق يعرض المشاهد والمواقف منوعة؛ ولكنها تلتقي في ظاهرة واحدة، إنه في كل مشهد أو موقف كأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه وأمام الموقف يتدبره؛ ففي مشاهد القيامة ومشاهد الاحتضار ترد هذه الوقفات قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذُ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذُ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ) (وَلَوْ تَرَىٰ إِذُ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ) (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً) وهكذا كل مشاهد السورة ومواقفها يتجلى فيها هذا التناسق ويكون طابعها العام<sup>(1)</sup>.

وكذلك سورة يوسف التي تمثل قصة واحدة متكاملة تتداخل فيها التعقيبات بين ثناياها، وتتناسق مع موضوع القصة الواحدة وطريقة عرضها وأدائها؛ فتحقق الهدف الديني كاملاً، وتحقق السمات الفنية كاملة مع صدق الرواية ومطابقتها للواقع؛ يقول سيد قطب: "وفي هذه السورة كما في السور القرآنية الأخرى تتكرر تعبيرات معينة تؤلف جزءاً من جو السورة وشخصيتها الخاصة، وهنا يرد العلم كثيراً وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع كثيرة قوله تعالى: (وَيُعَلِّمُكَ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ) (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) (إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ) (مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) (ذَلِكَ لِيُعَلِّمَ آتِي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ) (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (لَقَدْ عَلَّمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ) (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) (أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ...)) (وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا) (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم" (2).

ولعل الأمر يبدو واضحاً جداً في سورة الرعد - هذه السورة الفريدة - التي تعرض المشاهد الطبيعية المتقابلة في إطار إلهي واحد مقصود؛ يقول سيد قطب أيضاً: "هذه السورة من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد وإيقاع واحد وجو واحد وعطر واحد من بدنها إلى نهايتها والتي تفعم النفس وترحم الحس بالصور والظلال والمشاهد والخوارج التي تأخذ النفس من أقطارها جميعاً؛ فإذا هي في مهرجان من الصور والمشاعر والإيقاعات والإشراقات التي ترتاد بالقلب أفاقاً وأكواناً وعوالم وأزماناً وهو مستيقظ مبصر مدرك شاعر بما يموج حوله من المشاهد والموحيات، إنها ليست ألفاظاً وعبارات؛ وإنما هي مطارق وإيقاعات: صورها وظلالها مشاهدها وموسيقاها لمساتها الوجدانية، وهناك أن موضوعها الرئيس كموضوع كل السور المكية كلها على وجه التقريب هو: العقيدة؛ وقضاياها هي توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية

(2) في ظلال القرآن ص 310.

(1) في ظلال القرآن ص 1028.

(2) في ظلال القرآن ص 1967.

وتوحيد الدينونة لله وحده في الدنيا والآخرة جميعاً ، ومن ثم قضية الوحي وقضية البعث وما إليها ، ولكن هذا الموضوع الواحد ذا القضايا الواحدة لم يتكرر عرضه قط بطريقة واحدة في كل تلك السور المكية وفي غيرها من السور المدنية ؛ فهو في كل مرة يعرض بطريقة جديدة وفي ضوء جديد ، ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد ، إن هذه القضايا لا تعرض عرضاً جدلياً بارداً يقال في كلمات وينتهي كأى قضية ذهنية باردة ؛ وإنما تعرض وحولها إطار ؛ هو هذا الكون كله بكل ما فيه من عجائب هي براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البعيد المفتوح ، وهذه العجائب لا تنفذ ولا تبلى جدتها ؛ لأنها تكشف كل يوم عن جديد يصل إليه الإدراك ، وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات وأفاق وأمداد وأعماق ، وتعرض عليه الكون كله شتى مجالاته الأخاذة . والإطار العام الذي تعرض فيه هذه السورة قضاياها : هو الكون ومشاهده وعجائبه في النفس وفي الآفاق ، وهذا الإطار ذو جو خاص ، أنه جو المشاهد الطبيعية المتقابلة من سماء وأرض وشمس وقمر وليل ونهار وشخوص وظلال وجبال راسية وأنهار جارئة وزبد ذاهب وماء باق وقطع من الأرض متجاورات مختلفات ونخيل صنوان وغير صنوان ، وتطرده هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر في السورة ؛ يتناسق التقابل المعنوي مع التقابلات الحسية وتتسق في الجو العام ، ومن ثم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر ، ويتقابل ما تغيض به مع ما تزداد ، ومن أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، والخوف والطمع تجاه البرق ؛ ولأن الجو جو الطبيعة من سماء وأرض وشمس وقمر ورعد وبرق وصواعق وأمطار وحياة وإنبات - يجئ الحديث عما تكنه الأرحام من حيوان ويتناسق غيض الأرحام وازديادها مع سيل الماء في الأودية ومع الإنبات ؛ وذلك من بدائع التناسق في هذا القرآن" (1) .

وكذلك الأمر في سورة المؤمنون ، وهي سورة تقوم برأسها ويشكّل جوها العام البيان والتقرير والجدل الهادئ والمنطق الوجداني واللمسات الموحية للفكر والضمير والظل الذي يغلب عليها هو الظل الذي يلقيه موضوعها "الإيمان" ؛ ففي مطلعها مشهد الخشوع والقلوب الوجلة واللمسات الوجدانية المظلمة بذلك الظل الوجداني اللطيف . وهكذا تتناسق كل سورة من سور القرآن وتتناسب موضوعاتها المتعددة لتشكل كلاً متكاملًا يختلف في عرضه وأدائه عن عرض وأداء السور الأخرى ؛ فتغدو كل سورة قائمة برأسها بخصائصها وصفاتها المميزة .

#### (5) تناسب أوائل السور وخواتيمها

تنفصل كل سورة قرآنية عن الأخرى حتى تغدو مستقلة بفاتحتها وخاتمها التي تؤذن بالانتهاء ؛ ولأجل ذلك عرف الجعبري السورة فقال : "حذّ السورة قرآن يشتمل على أي نوات فاتحة وخاتمة" (1) ولما كانت السورة متناسبة في كل أجزائها فلا بد إذن أن تتسق الفواتح مع الخواتيم.

(1) في ظلال القرآن ص 2040.

(1) البرهان 163/1.

ومن أشكال هذا التناسب أن سورة يوسف قد افتتحت بذكر القصص المعجز الذي هو أحسن القصص قوله تعالى: ( نَحْنُ نُقْصِّصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ) وختمت بذكر القصص المعجز الذي هو أحسن القصص قوله تعالى: ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ) .  
وأن سورة الرعد قد بدأت بذكر الكتاب: ( تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ) وختمت بذكر الكتاب قوله تعالى: ( قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ) .

وأن سورة الإسراء قد بدأت بالتسبيح وذكر بني إسرائيل وفسادهم في الأرض للمرة الأولى قوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ..... وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ..... وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا) وانتهت بالتحميد وذكر بني إسرائيل وفسادهم في الأرض للمرة الثانية أو الآخرة - حسب التعبير القرآني - قوله تعالى: ( وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ..... وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ..... ) .

وابتدأت سورة الكهف بإنزال الكتاب وإيحائه إلى عبده الذي هو من البشر قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) وانتهت بذكر إيحائه إلى عبده الذي هو بشر قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ..... ) .  
وابتدأت سورة مريم بذكر الصوت الخفي قوله تعالى: (بِدَاءِ خُفْيًا) وانتهت بذكر الصوت الخفي قوله تعالى: ( هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا )<sup>(2)</sup> .

وابتدأت سورة المؤمنون بفلاح المؤمنين قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) وانتهت بعدم فلاح الكافرين قوله تعالى: (إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ) .

وابتدأت سورة النمل بآيات القرآن قوله تعالى: ( تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ) وانتهت بالقرآن والآيات قوله تعالى: (وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ..... وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا) .

وابتدأت العنكبوت بالجهاد قوله تعالى: ( وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ) وانتهت بالجهاد قوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .

وابتدأت سورة الفتح بذكر الفتح المبين والنصر العزيز والفوز العظيم وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ..... وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ..... لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا) وانتهت بذكر الفتح القريب والنصر العظيم وإنزال السكينة على المؤمنين قوله تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ..... فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ..... وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) .

(2) الركن : هو الصوت الخفي "انظر الجامع لأحكام القرآن 11 / 162 وتفسير القرآن العظيم 3 / 143 وفتح القدير 3 / 353".

وابتدأت سورة الحشر بذكر تسييح ما في السموات والأرض لله العزيز الحكيم قوله تعالى: (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) وانتهت بالشيء نفسه قوله تعالى: (يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وابتدأت سورة الممتحنة بنهي الذين آمنوا عن تولي أعداء الله الذين غضب عليهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) وانتهت بالشيء نفسه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) .

وابتدأت سورة القلم بنفي الجنون عن الرسول (ص): (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) وانتهت بإنكار قول الكافرين بأنه مجنون: (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) .

وابتدأت سورة القيامة باستفهام إنكاري يؤكد قدرة الله على البعث قوله تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) وانتهت بالشيء نفسه: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ..... أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)

#### 6- تناسب السور :

رغم أن السور تمثل وحدات مستقلة قائمة برأسها ومنفصلة عن بعضها ؛ إلا أن بينها نوعاً من التناسب وضرباً من الترابط والانسجام ؛ وإلا لم يكن لترتيبها على هذا النحو من معنى ؛ خاصة وأن هذا الترتيب توقيفي ولم يتأت باجتهاد بشري ، ولأجل ذلك يقول ولي الدين الملوي : "وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له" (1) ويقول الزركشي : "وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثم هذا التناسب قد يخفي تارة ويظهر تارة" (2) ولكن مع وجود هذا الارتباط فإن الواقع المصحفي يقرر استقلال كل سورة بنفسها ؛ ولهذا الانفصال أسباب ذكرها العلماء ؛ منها الآتي (3):

- لتكون كل سورة فنا مستقلاً وقرآناً معتبراً .
- بيان أن كل سورة سواء طال أو قصرت فهي معجزة
- لكي يرتاح القارئ المطيل ويكون شأنه شأن المسافر الذي يرتاح إذا قطع مرحلة.
- لكل سورة غرض خاص ونمط مستقل وموضوع مختلف .
- تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض .

ورغم هذا الانفصال – فقد اهتم العلماء ببيان المناسبة بين السور ، وكان أبو بكر النيسابوري يذكر هذا النوع ضمن المناسبات التي يذكرها وكان يتسأل بقوله : "ما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟" (1) .

(1) البرهان 1/ 37 ، الإتيان 289

(2) البرهان 1/ 37 .

(3) البرهان 163/1-166.

(1) البرهان 36 ، الإتيان 288/2

ويذكر العلماء أن أول من أفرد هذا النوع من التناسب بالتصنيف أبو جعفر بن الزبير الأندلسي ت 708 هـ صاحب "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن" (2) ثم جاء بعده كمال الدين بن الزمكاني (\*) ت 727 هـ صاحب "البرهان في إعجاز القرآن" الذي اهتم اهتماماً كبيراً بالترتيب المصحفي وبين أسرارهِ (3) يقول: "عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة" (4) ثم جاء برهان الدين البقاعي ت 885 هـ فألف كتابه "نظم الدور في تناسب الآيات والسور" المشهور بكتاب "المناسبات" ويصف صاحب كشف الظنون الكتاب بقوله: "هو كتاب لم يسبقه إليه أحد جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول" (5) ثم جاء جلال الدين السيوطي ت 911 هـ صاحب كتاب "تناسق الدرر في تناسب السور" الذي يقول القنوجي عنه: "كتابه في أسرار التنزيل جامع لمناسبات السور والآيات مع ما تضمنه من بيان جميع وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة" (1).

ورغم الإشادة بهذا النوع من التناسب والتنويه بفضلِه - إلا أنه قد لاقى من الهجوم ما لم تلاقه الأنواع الأخرى ، وقد ذهب العز بن عبد السلام إلى أن هذا التناسب الذي يطلبه العلماء إذا كان بين أمور مختلفة فهو ضرب من التكلف ، ويذكر الشوكاني (\*) أن بعض المفسرين قد تكلفوا وضيعوا أوقاتهم في مثل هذا النوع من التناسب الذي ما هو إلا تعسف لا يقبله الإنصاف ؛ يقول : " اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف ، وخاضوا في بحر لم يكفوه ، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة ؛ بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه ؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف ؛ فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه ؛ حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف ؛ كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته ، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله (ص) إلى أن قبضه الله عز وجل إليه ، وكل عاقل - فضلاً عن عالم - لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها ؛ بل قد تكون متناقضة ؛ كتحريم أمر كان حلالاً ، وتحليل أمر كان حراماً ، وإثبات أمر لشخص أو

(2) كشف الظنون 1/241.

(\*) ابن الزمكاني هو كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري بن خطيب زملكا وهي قرية قريبة من دمشق ، وقد كان فاضلاً خبيراً بالمعاني والبيان والأدب ، توفي سنة 651 من أشهر كتبه التبيان في علم البيان المطلع علي إعجاز القرآن.

(3) كشف الظنون 1/241.

(4) البرهان 1/39.

(5) كشف الظنون 2/1962.

(1) أجد العلوم 510/2. كتاب السيوطي "تناسق الدرر في تناسب السور" مستخلص من كتابه " أسرار التنزيل" يقول السيوطي نفسه " وكتابي الذي صنعه في أسرار التنزيل كافل بذلك جامع لمناسبات السور والآيات مع ما تضمنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة في جزء لطيف سميته تناسق الدرر في تناسب السور" الإتيقان 288/2 .

(\*) هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ولد سنة 1173 هـ وتوفي في صنعاء ، سنة 1250 هـ عني بالفقه والحديث والأدب والأصول من كتبه "نبيل الأوطار" و"فتح القدير" في التفسير "انظر أصول الفقه تاريخه ورجاله 231-232".

أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله ، وتارة يكون الكلام مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وتارة مع من مضى ، وتارة مع من حضر ، وحيناً في عبادة ، وحيناً في معاملة ، ووقتاً في ترغيب ، ووقتاً في ترهيب ، وآونة في بشارة ، وآونة في نذارة ، وطوراً في أمر دنيا ، وطوراً في أمر آخرة ، ومرة في تكاليف آتية ، ومرة في أقاصيص ماضية . وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف - فالقرآن النازل فيها هو باعتبار نفسه مختلف ، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين النَّار والملاح والحادي؟ " (1) وليس ذلك فحسب بل يذهب إلى أن طلب هذا النوع من التناسب يفتح باب الشك لمن كان في قلبه مرض ويوسع عنده دائرة الريب ، كما أن القرآن - عنده - قد أنزل بلغة العرب وسلك مسالكهم في الكلام وجرى على مجاريهم في الخطاب ، والخطيب عند هؤلاء العرب يأتي في خطبته الواحدة بفنون مختلفة وطرائق متباينة ، ومن يناسب بين السورة والسورة كمن يعمد إلى خطب الخطيب المختلفة التي تكون إحداهن في موضوع والأخرى في موضوع يختلف عنه كل الاختلاف فيحاول أن يجد المناسبة بينها .

ورغم هذا الهجوم على التناسب بين السور - إلا أن له كثيراً من الأدلة التي يمكن أن تؤيده وتثبتته ؛ ومن ذلك :

- إن الترتيب الذي على المصحف هو ترتيب إلهي نزل به القرآن إلى بيت العزة كما هو معلوم ، وهذا النزول بخلاف النزول التنجيمي الذي به نزل القرآن إلى الأرض ؛ يقول الإمام القرطبي: "ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر على ما بيّناه جملة واحدة ؛ فوضع في بيت العزة في سماه الدنيا ؛ ثم كان جبريل (ص) ينزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب ؛ وذلك في ثلاث وعشرين سنة " (2) ولو لم يكن هذا الترتيب مقصوداً لصحّ نفي التناسب ؛ ولهذا يقول الشيخ ولي الدين الملوي "قد وهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفارقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً ؛ فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سورته كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة .... وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها" (1).

- إن هذا الترتيب ترتيب توقيفي لا يمكن الاجتهاد في تغييره ، والقارئ للقرآن إنما يقرأه بحسب هذا الترتيب لا بغيره ، ومعلوم أن العلماء قد أنكروا تقديم السورة المؤخرة وتأخير السورة المقدّمة وسموا ذلك تنكيساً ، ولو لم يكن الترتيب مقصوداً لما كان لهذا الإنكار من معنى .

- كان حمزة القارئ يعدّ القرآن بمنزلة السورة الواحدة ، وكان كثير من القراء يرون وصل السور بسكت وبلا سكت ولهم في ذلك مذاهب (2) ، ولأجل ذلك فإن هذا الترتيب إنما قصد لأجل التناسب والارتباط .

(1) الشوكاني : فتح القدير 72/1 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 2/ 297 .

(1) الإيتقان/289 .

(2) عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ط/1 بيروت سنة 1970 م . ، 3/ 782-783 .

- يقول الإمام القرطبي : "قال قوم من أهل العلم : إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان توقيفاً من النبي (ص) فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ؛ فكله عن محمد خاتم النبيين عن رب العالمين ، فمن آخر سورة مقدّمة أو قدّم أخرى مؤخّرة كمن أفسد الآيات وغيّر الحروف والكلمات" (3).

- ذكر الشوكاني أن القرآن قد نزل على طريقة العرب ، وهذا أمر معلوم لا ينكره أحد، ولكن نزوله على لغة العرب لا يلزم عنه أن يكون تناسبه ونظمه ومعانيه كتناسب الأشعار أو الخطب وكنظمتها ومعانيها ؛ فإذا كانت خطب العرب مع بعضها غير متناسبة - فليس بالضرورة أن يكون القرآن كذلك ، ومعلوم يقينا أن القرآن - وإن كان جارياً على طريقة العرب - إلا أنه فائق لكل أشكال الكلام العربي ، وإلا لم يكن لادعاء الإعجاز من معنى .

- تحمل أقوال المنكرين لهذا التناسب في داخلها ما يخفف حدة هذا الإنكار أو يحوه تماماً ؛ فالعز بن عبد السلام قد ذهب في أول كلامه إلى أن : "المناسبة علم حسن ، ولكن إن وقع في أسباب مختلفة لم يشترط ارتباط أحدهما بالآخر" (1). فهو يقبل هذا التناسب بشروط معقولة ومقبولة جداً ، أما الشوكاني فإنك تراه في كتابه "البدر الطالع" يمدح البقاعي ويشيد بهذا التناسب رغم إنكاره له ها هنا ؛ يقول : "ومن أمعن النظر في كتابه في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور - علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء الجامعين بين علمي المعقول والمنقول" (2) ويقول عن البقاعي أيضاً : "إنه من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف" (3) .

ومن أمثلة هذا التناسب ختم الفاتحة ب قوله تعالى : ( اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ) وافتتاح البقرة ب قوله تعالى : ( ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ) كأنهم سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم ؛ فقيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو ذلك الكتاب (4)، يقول السيوطي: "أخرج ابن جرير وغيره من حديث علي مرفوعاً : الصراط المستقيم كتاب الله ، وأخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن مسعود موقوفاً ، وهذا معنى حسن يظهر فيه سرّ ارتباط البقرة بالفاتحة (1) وقال الخويبي : "وأوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ؛ لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى - قال : "قد أعطيتكم ما طلبتم ، هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسنون" (2). وختم المائدة بذكر السموات والأرض قوله تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وافتتاح سورة الأنعام بالشيء نفسه قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ).

(3) الجامع لأحكام القرآن 60/1.

(1) البرهان 39 / 1 ، الإتيان 289/2

(2) الشوكاني : البدر الطالع 1 / 20 - 22.

(3) المصدر السابق .

(4) البرهان 39 / 1.

(1) أسرار ترتيب القرآن ص 78.

(2) أسرار ترتيب القرآن ص 78.

وختم التوبة بإرساله رسولا من البشر ثم ذكر العرش قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ..... حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وافتتاح يونس بالشيء نفسه قوله تعالى: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ..... إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ).

وختم الرعد بذكر الكتاب وتكذيب الكافرين به قوله تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وافتتاح إبراهيم بذكر الشيء نفسه قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ..... وَيَلِّ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ).

وختم إبراهيم بذكر القرآن قوله تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ .....) وافتتاح الحجر بذكر القرآن قوله تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ).

وختم الحجر بإتيان اليقين قوله تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) وافتتاح النحل بإتيان أمر الله: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...).

وختم الإسراء بحمد الله وتنزيهه عن الولد قوله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ....) وافتتاح الكهف بالشيء نفسه قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ .... وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا).

وختم مريم بتيسير القرآن قوله تعالى: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِلسَّانِكِ .....) وافتتاح طه بالشيء نفسه قوله تعالى: (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى).

وختم سورة الجاثية بذكر الله العزيز الحكيم قوله تعالى: (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). وافتتاح الأحقاف بالشيء نفسه: (حَم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ).

وختم الأحقاف بقوله تعالى: (بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ) وافتتاح سورة محمد بقوله تعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) ، يقول السيوطي: "سورة القتال لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله في آخر الأحقاف "فهل يهلك إلا القوم الفاسقون" واتصاله وتلاحمه بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه لكان متصلا اتصالا واحدا لا تنافر فيه كالأية الواحدة آخذا بعضها بعنق بعض"<sup>(1)</sup>.

وختم الطور بذكر النجوم قوله تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَإِبْرَارَ النُّجُومِ) وافتتاح النجم بالشيء نفسه قوله تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى).

وختم القمر بقوله قوله تعالى: (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ) وافتتاح الرحمن قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ) وختم الواقعة بالتسبيح قوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وافتتاح الحديد بالشيء نفسه قوله تعالى: (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، يقول السيوطي: (قال بعضهم : وجه اتصال الحديد بالواقعة أنها قدمت بذكر التسبيح وتلك ختمت

(1) أسرار ترتيب القرآن ص 131.

بالأمر به ، قلت : وتمامه أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به ؛ وكأنه قيل: فسبح باسم ربك العظيم لأنه سبحانه سبوح لله ما في السموات والأرض"<sup>(2)</sup> .

وختم القيامة بذكر أن الإنسان لم يكن شيئاً ؛ بل كان نطفة قوله تعالى:(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ..... أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) وافتتاح الإنسان بالشيء نفسه قوله تعالى:(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) ، يقول السيوطي: "وجه اتصال سورة الإنسان بسورة القيامة في غاية الوضوح فإنه تعالى ذكر في آخر تلك مبدأ خلق الإنسان من نطفة ثم ذكر مثل ذلك في مطلع هذه السورة"<sup>(1)</sup>

وختم الماعون بمنع القليل بقوله تعالى: (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) وافتتاح الكوثر بإعطاء الكثير قوله تعالى:(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) . ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة لسورة الماعون التي وصف فيها المنافق بأربع خصال ؛ هي البخل وترك الصلاة والرياء فيها ومنع الزكاة ؛ فذكر في مقابل ترك الصلاة: (فَصَلِّ) وفي مقابل الرياء: (لِرَبِّكَ) أي لرضاه لا للناس ، وفي مقابل منع الماعون: (وَإِحْزَنُ) الذي أراد به التصدق بلحم الأضاحي"<sup>(2)</sup>.

خاتمة:

إن لفظ "قرآن" و"سورة" و"آية" تشير معانيها - وبصورة مباشرة في لغة العرب - إلى الضم والجمع والتأليف والتناسب والانسجام ، كما أن الله تعالى قد وصف القرآن العظيم بالإحكام في النظم والرصيف والتناسب ، ونفى عنه الاختلاف والتفاوت والاضطراب والتناقض ؛ ولهذا كانت مسألة "التناسب" هذه صفة جوهرية دار حولها دارسو الإعجاز القرآني على اختلاف مدارسهم وتعدّد رؤاهم وتباين وجهاتهم ؛ وقد أدرك هؤلاء الدارسون أن لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط والعلائق ، هذا وقد سبق بيان أن هذا التناسب علم شديد القدم ؛ إذ أن الصحابة وسلف الأمة الأوائل قد كانوا يدركون أسرارها ولطائفها ، ولكنه انعم بعد ذلك واندرس .

ولهذا التناسب - حسب هذه الدراسة - نوعان هما : **التناسب الخارجي** الذي تدرج تحته : مناسبة المعاني الخبرية للواقع الخارجي ، ومناسبة المعاني الحكمية للمصلحة ، ومناسبة المعاني القرآنية - بنوعها الخبري والحكمي أو "الإنشائي" لقوانين العقل وأحكامه . أما النوع الثاني من التناسب ؛ فهو : **التناسب الداخلي** الذي تدرج تحته : مناسبة المعاني القرآنية لبعضها ، وتناسب المفردات القرآنية مع بعضها ، وتناسب الجمل القرآنية مع بعضها ، وتناسب أجزاء السورة الواحدة ، وتناسب أوائل السور وخواتيمها ، ومناسبة خواتيم السور لأوائل التي تليها . ولم تكن هذه الأنواع على درجة واحدة عند العلماء ؛ إذ أن مناسبة المفردات لبعضها قد لاقت اهتماما واسعا عند البلاغيين ودارسي الإعجاز ، أما تناسب خواتيم السور مع أوائل التي تليها فقد وجهت له اعتراضات كثيرة ، ورغم أنه أضعف ضروب التناسب من جهة وأنه لم يهتم به إلا

(2) أسرار ترتيب القرآن ص 136 .

(1) أسرار ترتيب القرآن ص 144

(2) انظر البرهان 38/1.

المتأخرون كابن الزبير وابن الزمكاني و البقاعي والسيوطي من جهة أخرى- إلا أن له ما يبرره ؛ مثل أن الترتيب المصحفي إنما هو ترتيب إلهي توقيفي مقصود نزل به القرآن إلى بيت العزة ونحو ذلك من الأدلة التي ذكرت في أصل البحث .

ولاشك أن ترتيب أنواع التناسب بصورة منهجية - تدرج فيها الجزئيات تحت الكليات - ليشكل نظرية متكاملة في دراسة التناسب والإعجاز والتفسير ؛ وذلك ما حاولت هذه الدراسة فعله.

## المراجع :

- 1- الأصفهاني :غريب القرآن تحقيق محمد سيد كيلاني ط/ دار المعرفة بيروت
- 2- الإمام البخاري : محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري ، تحقيق مصطفى ديب البغا ط/3 دار ابن كثير بيروت سنة1987م
- 3- البغدادي: عبد القاهر: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ط/1 القاهرة.
- 4- الترمذي : محمد بن عيسى : الجامع الصحيح ، تحقيق أحمد محمد شاكر ط/ دار إحياء التراث العربي بيروت .
- 5- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحلیم : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ط/ مكة سنة 1404هـ .
- 6- الجاحظ : عمرو بن بحر : البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ط/ الخانجي القاهرة سنة 1985م .
- 7- الجرجاني : عبد القاهر بن عبد الرحمن : دلائل الإعجاز: محمود محمد شاكر ط / الثالثة مكتبة القاهرة سنة 1992م .
- 8- الخطابي : إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغول سلام ط/ دار إحياء الكتب العربية سنة 1968م.
- 9- الخياط : عبد الرحيم محمد بن عثمان :الانتصار والرد علي ابن الرواندي الملحد ، تحقيق د/نبيرج ط الثانية سنة 1993م
- 10- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان :سير أعلام النبلاء ط/1 مؤسسة الرسالة بيروت تحقيق محمد نعيم سنة 1982م .
- 11- الزرقاني : محمد عبد العظيم : مناهل العرفان: ط/1 دار الفكر بيروت .
- 12- الزركشي : بدر الدين: محمد بن بهادر : البرهان في علوم القرآن: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط / دار الجيل بيروت سنة 1988م .
- 13- سيد قطب إبراهيم : في ظلال القرآن ، ط/دار الشروق " بدون تاريخ".
- 14- السيوطي : جلال الدين :
- (أ) الإتيان : تحقيق خليل محمد العربي ، ط/ دار الفاروق الحديثة القاهرة 1415هـ
- (ب) أسرار ترتيب القرآن : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي :تحقيق عبد القادر أحمد عطا ط/ دار الاعتصام القاهرة
- (ج) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ المكتبة العصرية .
- (د) معترك الأقران في علوم القرآن :تحقيق علي محمد البجاوي ، ط/ دار الفكر بيروت سنة 1973م .
- (هـ) تفسير الجلالين : ط/ 1 ، دار الحديث القاهرة "بدون تاريخ" .
- 15- الشاطبي :أبو إسحاق: الموافقات تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد سنة 1969م

- 16- الشوكاني : محمد بن علي :
- (أ) إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول : تحقيق محمد سعيد البديري ط/ دار الفكر بيروت سنة 1993م
- (ب) فتح القدير ط/ دار الفكر بيروت " دبت".
- 17- الصنعاني : أبو بكر عبد الرزاق بن همام ، مصنف عبد الرزاق / تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، ط، / 2 المكتب الإسلامي بيروت ، سنة 1403هـ .
- 18- الطبري :محمد بن جرير : جامع البيان : ط/ دار الفكر بيروت سنة 1405هـ .
- 19- عبد الله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، ط/1 بيروت سنة 1970م
- 20- ابن قتيبة :تأويل مشكل القرآن : تحقيق أحمد صقر ، ط/ دار إحياء الكتب العربي
- 21- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : تحقيق أحمد عبد العليم البردوني ط/3 دار الكتب المصرية.
- 22- القزويني : جلال الدين : الإيضاح ط/ دار إحياء العلوم بيروت سنة 1998م.
- 23- ابن قيم الجوزية :
- (أ) إعلام الموقعين:تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، ط / دار الجيل بيروت سنة 1973م.
- (ب) الصواعق المرسلّة: على الجهمية والمعتلة ، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله ط/3 دار العاصمة الرياض سنة 1998م .
- 24- القنوجي : محمد صديق :أبجد العلوم والوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، ط/دار الكتب العلمية بيروت .
- 25-الإمام مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري : صحيح مسلم : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط/ دار إحياء التراث العربي.
- 26- ابن كثير : إسماعيل بن عمر :
- (أ) تفسير القرآن العظيم ، ط/ دار الفكر سنة 1981م.
- (ب) البداية و النهاية ، ط/ مكتبة المعارف بيروت .
- 27- ابن منظور :جمال الدين : لسان العرب ط/ دار صادر للطباعة والنشر ، سنة 1990م .